الباب الثالث

الآراء الفلسفية عند الأمير شكيب أرسلان

الفصل الأول

نقد الأمير شكيب أرسلان للفكر المادي الحديث

- تمهيد
- قضايا الإنسان في فكر الأمير شكيب أرسلان

ونظرية التطور

- عمر الإنسان
- مذهب النشوء والإرتقاء
- مذهب النشوء والإرتقاء في الغرب
- مذهب النشوء والإرتقاء في الشرق العربي
- رأي الأمير شكيب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية

تمهيد :

في أواخر القرن الثامن عشر ، وفي أثناء القرن التاسع عشر بأسره ظهرت بعض النظريات ، أو الفروض العلمية العامة ، التي حاول أصحابها أن يفسروا بها نشأة الحياة على سطح الأرض . وكانت هذه الفروض في حقيقة الأمر امتداداً لبحوث قام بها علم جديد هو علم طبقات الأرض ، فإن بحوث هذا العلم أثبتت أن المادة غير العضوية التي تتكون منها القشرة الأرضية مرت بأطوار عديدة ، وعصور جيولوجية حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن ، كما تدل على ذلك الحفريات التي تكشف لنا عن تكون طبقات أرضية متتالية بعضها فوق بعض في آماد سحيقة .[١]

ولقد راجت فكرة (التطور) في هذا العصر رواجاً كبيراً ، حتى أصبح يطلق عليه عصر التطور [٢]، ففي علم الأحياء أراد الباحثون أن يطبقوا فكرة التطور هذه على الكائنات العضوية كالنبات والحيوان ، وحاولوا اثبات أن ظهور الحياة يعتبر امتداداً لتطور المواد غير العضوية في ظروف ملائمة ، لكنهم اختلفوا في السبب المباشر للحياة[٣]، وفي علم الأديان راجت نظرية التطور الأديان ، وفي عالم الفكر راجت نظرية تطور المبادئ والنظم ، وسرت هذه الفكرة إلى كل ناحية ، فالعائلة والأخلاق والدولة تطورت ، وكل شيء في هذا الكون تطور ، وأصبح التطور يطلق على معاني التقدم والإرتقاء ، وصار من وراء ذلك خلط عجيب لا يكاد ينجو منه إنسان .[٤]

والحق أن أي بحث متعلق بتصور (الإنسان) وخصائصه الفريدة لا يمكن أن ينفصل عن الدين ، فنحن - المسلمين - نؤمن «أن المصدر الوحيد الذي يمدنا بحقائق مؤكده عن خلق الإنسان ومكانته وغايته هو القرآن الكريم ، ولذا عنى مفكروا الإسلام

---

١ - د. محمود قاسم ، جمال الدين الأفغاني حياته وعصره ، ص١٧٥ .

٢ - قيس القرطاس ، نظرية دارون بين مزيديها ومعارضيها ، ص١١ .

٣ - د. محمود قاسم ، جمال الدين الأفغاني (مرجع سابق) .

٤ - قيس القرطاس ، نظرية دارون (مرجع سابق) .

باستمداد نظراتهم من القرآن مباشرة» [١]

«مثال ذلك ما كتبه ابن تيميه في تفسير لبعض الآيات القرآنية في هذا المجال مثال قوله تعالى : «وجعلنا من الماء كل شيء حي» ، وقوله عز وجل : «الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين» فأصل الإنسان التراب وفصله الماء وهنا تظهر القدرة الإلهية التي تبهر العقول وهو أن يقلب حقائق الموجودات فيحيلها من شيء إلى آخر ، فإذا خلق الله الإنسان من المني ، فالمنى استحال وصار علقة والعلقة استحالت وصارت مضغة والمضغة استحالت إلى عظام وغير عظام .

فالإنسان مخلوق خلقه الله - جواهره وأعراضه - كلها من المني أي من مادة استحالت فهي ليست مادة باقية أحدث الله فيها صورة الإنسان كما يزعم الفلاسفة .

ويقدم لنا الأصفهاني نظرة أخرى فيذكر أن الإنسان مركب من بدن محسوس وروح معقول مستنداً إلى قوله تعالى : «إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» فالروح هي النفس ويرى أن إضافتها إلى الله تعالى تشريفاً لها» [٢]

«أما كمال الإنسان فيتحقق في أن يكون مراده هو الله سبحانه وتعالى لأن من لم يكن عبداً لله فلابد أن يصبح عبداً لغيره»[٣] .

«وهكذا فإن «الإرتقاء» في جوهره أخلاقي بحيث يصل الإنسان حينئذ إلى مستوى أفضل من (الملائكة) فلا يظهر الإنسان في ابتداء أحواله وإنما يظهر فضله عند كمال أحواله وليس أدل على ذلك من ثبات أحوال (الملك) الذي يتشابه أول أمره وآخره ، فالقاعدة الأساسية إذن إذا تكلمنا عن الرقي الإنساني وتقدمه الحضاري يكمن في

---

١ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص١٩١ .

٢ - د. مصطفى حلمي ، (المرجع السابق نفسه) ص١٩١-١٩٥ .

٣ - المرجع السابق .

رقيه الأخلاقي وسبيله إلى ذلك الحرية بالمفهوم الإسلامي ، وهي تعني تحرير الإرادة الإنسانية من سلطان الهوى والشهوات والسمو بالغرائز وتهذيبها خضوعاً لأوامر الله عز وجل» [١]

وهكذا يضع (القرآن الكريم) الإنسان في موضعه الصحيح ، ويمده من تعاليمه وأحكامه وحدوده وهداه بما يكفل له خير الحاضر والمستقبل ، وبما لا تستطيع عقيدة أخرى إمداده به .

«ولن يستطيع ناصح أن ينصح أهل القرآن بعقيدة في الإنسان والإنسانية أصح ولا أصلح من عقيدتهم التي يستوحونها من كتابهم الكريم» [٢]

ولكن النظريات المادية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في أوروبا عن إرتقاء الإنسان ، وكونه حيواناً مترقياً عما دونه من الحيوانات «لم يزل يختار بمرحلةبعد مرحلة في رحلته النوعية التي استغرقت ألوفاً من السنين ولم يزل ينتقل من طور حيوان إلى طور آخر ، من (أميبا) إلى قرد ومن قرد إلى إنسان حتى بلغ كماله النوعي ، وزعيم هذه النظرية وبطلها (دارون) الذي ظهر كتابه أصل الأنواع سنة ١٨٥٩م فكان حديث النوادي والمجامع والمدارس وشغل الناس الشاغل» [٣] كانت هذه النظرية اتجاهاً جديداً لم يسبق في المسائل البشرية وما يتعلق بها ، تقلب تيار الفكر وتصرف نظر الإنسان في الإستعلام والاستهداء في مسائله وفي تاريخه من الإنسان إلى الحيوان ، وتجعله يعتقد أن هذا الكون سائر بغير عناية إلهية ، وبغير أن تتداخل فيه قوة غير طبيعية .

إن مناقضة هذه النظرية للدين والعقل في المبادئ والغايات والنتائج الفكرية والخلقية وآثارهما العملية واضحة ، بل كان هذا ديناً جديداً يهدم الدين القديم من الأساس ويحل محله ، فلا غرابة إذاً إذا إضطرب لها رجال الدين وحسبوا لها كل حساب، وخافوا على مصير الدين في أوروبا .[٤]

---

١ - المرجع السابق .

٢ - عباس محمود العقاد ، الإنسان في القرآن ، ص١٨٦ وما بعدها .

٣/٤ - أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص٢٠٧-٢٠٨ .

وقد تصدى للرد على (مذهب التطور) هذا في الشرق الإسلامي عامة ، والشرق العربي خاصة نخبة من المفكرين وقادة الإصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية ، وقد هالهم إقبال الجمهور والدهماء على هذه النظرية في أوروبا - رغم ما فيها من ضعف ونقص من الوجهة العلمية - فهموها أو لم يفهموها - وكأن الأذهان كانت مهيئة لمثل هذه النظرية .[١]

والشرق في ظل التخلف المادي والتفوق الحضاري الغربي أصبح يعيش حالة من فقدان الثقة بالنفس والإضطراب جعلته مفتوناً بتقليد الغرب وتلقي كل ما يصدر عنه من أفكار ونظريات ومفاهيم في شتى مجالات السياسة والإجتماع والعلم والتربية وكأنها حقائق علمية لا مجال لمناقشتها .

لذلك كان إسهام رواد الفكر من المسلمين والمسيحيين ، وأصحاب الإجتهاد من أهل السنة والشيعة ، وأتباع الكنائس الشرقية والغربية في بلاد العالم العربي ضرورة ملحة ، وقد وصلت أصداء الردود التي كتبها المشهورون من أولئك المفكرين إلى أطراف البلاد الإسلامية في الهند والصين .

ومن أشهر من تصدوا للمذهب المادي في العصر الحديث السيد/جمال الدين الأفغاني في كتاب (الرد على الدهريين) ، والشيخ/محمد رضا آل العلامة التقي الأصفهاني . وهو باحث فاضل من علماء الشيعة بكرباء المعلي ، تحري النظر في مجموعة وافية من مراجع مذهب النشوء والإرتقاء العربية والأفرنجية التي وصلت إلى الشرق الإسلامي ثم رد عليها في كتابه (نقد فلسفة دارون) ، والأستاذ/إبراهيم حوراني - وهو عالم لغوي مطلع على المباحث العلمية - وقد ألف في الرد على مذهب دارون رسالة «مناهج الحكماء في نفي داروين» وطبعها ببيروت (سنة ١٨٨٦م) رداً على مناقشة «الدكتور شبلي شميل» لرسالته الأولى ، فصب حملته الكبرى على موطن الضعف في المذهب وهو افتقاره إلى الدليل القاطع وتعويله على الشواهد التي توحي

---

١ - المرجع السابق نفسه ، ص٢٠٩ .

بالرأي ، ولا تستأصل الشكوك أو تسكت المعترض المطالب بدليل لا يضعفه الاحتمال.[١]

ولقد كان الأمير (شكيب أرسلان) واحداً من مفكري الإسلام الذين شعروا بخطر تأثير هذه النظرية العميق على الأفكار والعقائد والحضارة والأدب والسياسة وفي أخلاق الناس .

لذلك حذر شكيب أرسلان العالم الإسلامي من الإستغراق في الفكر المادي الوافد من أوروبا ، ونسيان ما سوى القيم المادية ، وبين أن نتائج هذه المادية الجارفة ، والتربية اللادينية التي ليست فيها نصيب للأخلاق ومخافة الله عزوجل ستؤدي إلى عبادة المادة ، والإنقياد لشهوات البدن ، وضياع المثل العليا التي لا تتكون في الأذهان، ولا تصير هدفاً للقرائح ومرمى للعزائم إلا عند المؤمنين بدين الله تبارك وتعالى.

كما قرر الأمير شكيب أن مذهب التطور أياً كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ، ليس فيه ما يصح أن يستند إليه الملحدون لإبطال الدين أو إنكار الخالق أو القول بخلو الكون من دلائل القصد والتدبير .

وإذا كان لانتشار هذه النظريات المادية في أوروبا أسباب حتمية دينية وطبيعية وتاريخية ، جعلت علماء الطبيعة والعلوم يحطمون سلاسل التقليد ويبطلوا نظريات التوراة من جهة تكوين الأرض وبدأ الخلق ، كما بينوا زيف النظريات الجغرافية التي اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها في صرامة وصراحة ، ومنها ما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمود وجهل واستبداد وسوء تمثيل ، فليس في الإسلام ما يدعو إلى نبذ الدين ، ولا يوجد في القرآن شيء يخالف قواعد العلم ، بل إن في الرجوع إلى الإسلام والأخذ بما جاء في القرآن يزيد إيمان المسلم من شدة مطابقة آياته البينات للتحقيقات الحديثة ، ويحار فيها غير المؤمن بالوحي ، يقول شكيب أرسلان :

---

١ - عباس محمود العقاد ، الإنسان في القرآن (مرجع سابق) ص١٢٣ .

«إن القرآن الكريم ليس بكتاب جغرافيا ولا قوسموغرافية ، بل كتاب توحيد تنزيه ، وتهذيب نفوس ، وتطهير أخلاق ، ومع هذا فلم يرد فيه شيء يخالف قواعد العلم بل وجدت فيه آيات بينات يحار غير المؤمن بالوحي من شدة مطابقتها للتحقيقات الحديثة سواء في علم الفلك ، أو في علم تكوين الأرض مما كان في عهد نزول القرآن مجهولاً»[١]

ويستشهد الأمير شكيب بآيات من القرآن الكريم تنطبق على النظريات العلمية الحديثة التي ثبتت صحتها كحقائق علمية ، وذلك مثل آية :

«أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي» (*) [٢] ويدعو الأمير شكيب إلى تأمل مافي هذه الآية من الإنطباق على جميع النظريات العلمية الحديثة التي معناها أن الأرض والأجرام الفلكية كلها كانت كتلة واحدة فانفصل بعضها عن بعض ، وكذلك أن الحياة بدأت في المياه .[٣]

وقول الله تعالى : «وكل في فلك يسبحون» (*) [٤] التي تثبت أنه لا يوجد في الفلك جرم غير متحرك على الإطلاق مع أن الفلكيين في عصر القرآن كانوا يقولون بالسيارات والثوابت ، حتى التجأوا يومئذ عند تفسير هذه الآية إلى التأويلات والإحتمالات البعيدة ، إلى أن تقرر في علم الهيئة الجديد كون الإجرام الفلكية بأجمعها متحركة ، وصدقت الآية بدون أدنى تأويل .[٥]

وقوله تعالى : «من كل زوج بهيج» (*) [٦] وكيف كرر ذلك مراراً حتى يفهم

---

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ٢ مج١ ص٣٤٥ .

٥/٣ - المرجع السابق نفسه ، ص٣٤٦ .

(*) ٢ - سورة الأنبياء ، آية : ٣٠

٤ - سورة يس ، آية : ٤٠

(*) ٦ - سورة الحج ، آية (٥) - سورة (ق) ، آية (٧) .

الإنسان أن الخلق كله من حيوان ونبات وجماد ، مبنى على الإزدواج حتى النبات فيه ذلك، والجماد فيه القوتان السلبية والإيجابية مما لم يكن شيء منه معلوماً في زمن البعثة ، فلم يفهم العلماء بعد مرماه إلى أن تكلفت به التحقيقات العصرية » [١]

« يذكر الأمير شكيب هذه الآيات البينات وغيرها من الآيات التي تدهش القارئ المتعلم بما فيها من الحقائق العلمية (بشرط أن يكون ذا ملكة عربية ، يقدر بها أن يتدبر عمق غوز تلك الآيات لا أن يكون أجنبيا عن أدب العربية) [٢]

وبهذا الفهم القائم على الإيمان بقدرة القرآن الكريم على المواجهة والتحدي أمام التفكير المادي الذي يلح على أن هذه الحياة الدنيا هي كل شيء ، ويبالغ في تمجيدها وتقديسها الإحتفاء بها والحرص على ترفيهها وتزيينها ينطلق الأمير شكيب أرسلان في تصوره للوجود والإنسان ، وفي نقده للمذهب المادي الحديث المتمثل في (نظرية التطور) في شكلها العلمي والفلسفي وفي تطبيقاتها المعاصرة من خلال الفكر الشيوعي الذي أسس فلسفته (كارل ماركس ١٨١٨-١٨٨٣م) ليتم حلقة التطور ، (ويثبت بنظريته التطورية لتفسير التاريخ ، أن تاريخ الإنسان ، هو تاريخ البحث عن الطعام ، فتاريخه لا يعدو في قيمته الحقيقية ، أن يكون تاريخ أي حيوان يقتات على الأعشاب أو يفترس غيره من الحيوانات) [٣]

وهكذا جحد (ماركس) جميع نواحي البشرية غير الناحية الإقتصادية ولم يعر غيرها شيئاً من العناية ، ولم يقم للدين والأخلاق والروح والقلب وحتى العقل وزناً وقيمة ، ولم يعترف أن أحداً منها كان عاملاً من عوامل التاريخ ، وأن جميع الحروب والثورات في التاريخ لم تكن إلا ثأراً لبطن من بطن ، وجهاداً في سبيل تنظيم جديد للنظام الإقتصادي وطرق الإنتاج الصناعي . [٤]

١/٢ - المرجع السابق نفسه ، ص٣٤٦ .

٣ - قيس القرطاس ، نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها (مرجع سابق) ص١٧٣ .

٤ - أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم . (مرجع سابق) ص٢٠٧ .

وشكيب أرسلان يرى أن الإسلام ليس بحاجة إلى (الشيوعية) لأن المبادئ الإسلامية فيها ما هو خير من الشيوعية ، والشرائع السماوية أقرب إلى المساواة ، وأرفق بالضعف ، وأحدب على الفقر من القوانين البشرية .[١]

كما يرى شكيب أرسلان أن الإسلام وحده هو القادر على صد المادية الجارفة ، «ففي الإسلام ، الطاقة الإيمانية عقلية في أكثر أحوالها ، تعتمد على الرشد والنقد والمحاكمة ، وقد أمدها هذا العصر العلمي الأخير بمدد لا يفنى من الحجج والبراهين ، وهكذا يصبح من السهل استعادة استقلالنا في مجال الأفكار» [٢]

ولن يتحقق هذا الإستقلال إلا بإيجاد صورة من التماسك السياسي للدول الإسلامية، وإعادة النظر في أساليب التربية ومناهج دراسة الثقافة الأوروبية ، وبعث (مدنية اسلامية) تنقذ أجيالنا من تشرب روح المدنية الغربية .

---

١ - شكيب أرسلان ، مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ٤ ص٥٣٥ .

٢ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص٢٠٣ .

قضايا الإنسان فى فكر الأمير شكيب أرسلان ونظرية التطور

عمر الإنسان

إن تقدير الزمن الذى مضى على ابتداء حياة الانسان على وجه الأرض مرتبط بكل بحث عن أصل الإنسان فى جميع المذاهب ، ومن أكبر الديانات التى عرضت لتاريخ الخليقة الديانة اليهودية التى قدرت عمر البشرية بخمسة آلاف أو سبعة آلاف سنه [١] ، وظل هذا الإعتقاد شائعا حتى نهاية القرن السابع والثامن عشر دون أن يعرض لعلماء الغرب من مباحث الدين أو العلم ، شيء يدعوهم إلى تقدير عمر للخليقة يزيد على ستين قرنا بحساب السنين الشمسية ، ثم تتابعت الكشوف عن ظواهر الطبيعة كيفما تناولتها العلوم الحديثة ، فتضاءلت هذه القرون الستون حتى أصبحت كلمحة البصر الخاطفة [٢] بالقياس الى أعمار الكائنات السماوية والأرضية . وقد أوقعت هذه الكشوف علماء أوروبا فى مشاكل من جهة تطبيق هذه النظريات على التوراه ، وقد انقسموا فى البحث عن حل لهذا المشكل إلى ثلاث فئات بيّن كلاً منهم الأمير شكيب فقال : إن الفئة الأولى حلت هذا المشكل برفض التوراة بتاتا وهؤلاء هم الفئة التى لا تقول بالأديان ، والفئة المسماه بالإلهيين وهم الذين يعتقدون بوجود الصانع ولا يقولون بالنبوءات . والفئة الثانية بقيت متمسكه بالديانة المسيحية ولكن مع الاعتقاد بأن التوراه دخلها تحريف كثير وأن فيها كثيرا مما أدخله اليهود . .

وهناك الفئة الثالثه التى لا تقبل التأويل والتخريج فى التوراه ولا ترضى بأن يقال أن فيها من أوضاع اليهود – وبالتالى فليس من التنزيل – كما أنها لا ترضى أن يقال بأن الكتب المنزلة انما تخاطب الناس على قدر عقولهم وتتجنب التصريح بما هو فوق أفهامهم خشية الفتنه وادخال الشك على العقائد ، فهذه الفئة الثالثة هى الفئة المتدينةالباقية الى اليوم على العقائد التى كانت عليها النصرانية فى القرون الوسطى وهى التابعة للكنائس سواء كانت الكنيسة الكاثوليكية ، أو الأرثوذكسية ، أو البروتستانتية [٣] .

---

[١] المصادر اليهودية ، على حسب تحقيق الفقيه (جميس يوشر) المتوفى سنة ١٩٥٦ م تدل على ابتداء الخليقه فى شهر أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق.م ، وقد شرح أسانيده التى بنى عليها هذا التقدير فى كتاب ضخم سماه السجلات القديمه ، والعهد الجديد ... (عباس العقاد – الانسان فى القرآن ص ٧٠) .

[٢] عباس العقاد-الانسان فى القرآن ص٧ . [٣] شكيب أرسلان/ابن خلدون/ ملحق الجزء الأول ص ٣٠

وفى العصر الحديث ظهرت فئة من المفكرين الغربيين المنصفين نذكر منهم مفكرين فرنسيين كبيرين هما الدكتور (روجيه جارودى) والدكتور (موريس بوكاى) اللذين أنتهى بهما تفكيرهما الى اعتناق الاسلام والتبشير به فيما يقدمانه من بحوث ومحاضرات [١] .

وقد خلص (موريس بوكاى) الطبيب الفرنسى الباحث فى دراسته القيمة (القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم) الى القول بأن سفر التكوين يتضمن أكثر المتناقضات وضوحا مع العلم الحديث ويحصرها فى ثلاث نقاط جوهرية :

(١) خلق العالم ومراحله .

(٢) تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الانسان على الارض .

(٣) رواية الطوفان [٢] .

وأهم ما يعنينا فى هذه النقاط الثلاث هو تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الانسان على الارض فيقول (موريس بوكاى) :إن التقدير العبري الوارد بالعهد القديم يحدد تاريخ خلق العالم بسبعة وثلاثين قرنا قبل الميلاد ، وهو مخالف تماما لما نعرفه بواسطة العلم الحديث إذ من العسير معرفة ما يتعلق بخلق الكون ، وكل ما يمكن تحديده على وجه التقريب هو تكون النظام الشمسى تقريبا بأربع مليارات ونصف من السنوات [٣] .

كذلك أخطأت التوراة فى سفر التكوين عندما حددت الفترة الزمنية التى تفصل بين ابراهيم وآدم عليهما السلام – فأدت الى الزعم بأن آدم عليه السلام كان قبل المسيح بثمانية وثلاثين قرنا .

وقد ثبت أن هذه التقديرات الوهمية من عمل الكهنة اليهود فى القرن السادس قبل الميلاد ، وتتعارض مع المكتشفات العلمية التى حددت تاريخ الخلق بعصر سابق بكثير[٤] .

ويقرر (موريس بوكاى) بأنه لا أحد يستطيع أن يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهور الانسان ، ومع ذلك فيمكن التأكيد بوجود أطلال الانسانية مفكرة وعاملة ويحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات من ألوف السنين .

وعلى أى حال فإن المعطيات العلمية تسمح بتحديد تاريخ الانسان أبعد بكثير من العصر الذى يحدده سفر التكوين لأوائل البشر [٥] .

---

[١] د. التهامى نقرة ، مناهج المستشرقين فى الدرسات العربية الاسلامية ، جـ ١ ص ٣٦

[٢] ، [٣] ، [٤]، [٥] د . مصطفى حلمى ، الاسلام والاديان ، ص ١٥١ إلى ١٥٤

هذا فى موقف علماء الغرب مما جاء فى اليهودية والنصرانية من تحديد لعمر البشرية،

أما عن موقف القرآن الكريم مما جاء عن عمر الإنسان بتقدير العلوم العصرية فإن الأمير شكيب أرسلان يقرر أن القرآن الكريم لم يوجب على المسلم مقدارا محدودا من السنين لخلق الكون أو لخلق الانسان فلا تناقض بين الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبوا البشر كما هو منصوص عليه فى القرآن وبين تقدير تاريخ الإنسان على الأرض بألوف السنين بدلا من العشرات أو الاحاد . يقول شكيب " إن الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبوا البشر هو منصوص عليه فى الكتاب ، فأما المدة التى ضربها أصحاب التوراة لوجود الإنسان فليس فى القرآن الكريم شىء يدل عليها ، بل هناك الاية الكريمه (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) " [١] .

ومع كثرة الدلائل التى وصلت إلى كشفها الجيلوجيا الحديثه تحت طبقات الأرض وفى أجوافها من العظام البشرية والمصنوعات اليدوية من صنع الانسان القديم إلا أن العلماء لا يزالون يقررون بأن معلوماتهم مفتقرة إلى الإكمال ، فليس من المحقق أن يوغل التاريخ فى القدم إلى كل تلك الألوف من السنين ، ولكن المحقق أن ايغالها إلى تلك الدهور كلها أو ما هو أقدم منها ليس بالأمر المستغرب .

يقول الأمير شكيب : " إن الذين جزموا بقدم عهد الانسان بناء على ما كشفوه فى باطن الارض ، وما نقبوا عنه فى الكهوف والغيران ، وما عثروا عليه عرضا واتفاقا فى قيعان البحيرات ، لا يزالون يقرون بأن معلوماتهم مفتقرة إلى الإكمال وأنه لا يصح الجزم الا بالنظرية الاجمالية التى معناها كون الإنسان وجد ، لا من خمسة آلاف سنه ولا من سبعة آلاف سنه ، بل من أضعاف هذا العدد من السنين " [٢] .

والمحقق كذلك أن الانسان القديم الذى دلت عليه تلك البقايا ، كان يستخدم الآلات الحجريه ، ويستعين فى كفاح أعدائه من الحيوانات الضاريه بنصيب من الذكاء لم يكن معهودا من حيوان منها ، " وأنهم استدلوا على ذلك بوجود حجارة مصقوله على شكل الفؤوس كانوا يجهلون فى أول الامر حقيقتها وكانت العامه تعتقد بأنها حجارة تتكون من السحاب " [٣] .

---

[١] المرجع السابق ص ٣٢ و الآية رقم (٥١) من سورة (الكهف)

[٢] شكيب أرسلان / ابن خلدون / ملحق الجزء الأول ص ٣٢

[٣] المرجع السابق ص ٣٢

" ولما قال بعض علماء القرون الوسطى بأنها من صنع أيدى البشر رفضوا كلا مهم ومنذ مائتى سنه تواترت الأدلة بكثرة ما وجد من هذه الحجارة فى أعماق متفاوتة تحت التراب ، وتحت الماء ، ومنها ما بسقت من فوقه الأشجار ، ومنها ما تكونت من فوقه المعادن ، فحسب علماء الأزمنة الحديثة مايستلزم وجود هذه الطبقات المتراكمة فوق تلك الأدوات التى صنعها البشر الأولون من الزمن الطويل والدهور والدهاريز فحكموا بأنه لابد لذلك من عشرات ألوف من السنين " [١] . فالإنسان منذ أقدم عهوده مميز بالعقل والنطق وهما صفتان انسانيتان لاتنفصلان عن استخدام الآلة ولاعن الخاصة المميزة للحيوان الناطق من اعتدال القامة ومطاوعة اليد للإرادة فى حالات المشى والوقوف ، ولولا ذلك لما استطاع الإنسان ان يستخدم السلاح وأن يصنعه لإصابة الحيوانات الضارية من بعيد . ويؤيد هذا أن الاستدلال على وجود الإنسان فى الأعصر المختلفة لم يقع بالرمم البشرية فحسب " بل وجدت له آثار اخرى وآلات وتصاوير يحكم على وجوده بوجودها والأثر يدل المؤثر " [٢]

هذا هو رأى الأمير شكيب عن ابتداء حياة النوع الانسانى وهو مرتبط بإيمانه بأصل الإنسان كما جاء بالكتاب ، أما الانسان المتمدن فإن الأمير شكيب يدعو إلى عدم إهمال الأخبار القديمة التى يرويها الأقدمون عن ماضيهم البعيد فى حياة الثقافة والحضارة الرفيعة فهى جزء من تاريخ الإنسان وليس لنا أن ننقضها بغير دليل ، ولاينبغى أن نحملها محمل الاساطير والأقاصيص الوهمية ، " فإنه مهما كان التواتر قد تداخله اقوال عامية ، وآراء ساذجة ، فإنه يرجع إلى نصاب صدق فى الاصل لاشبهة فيه فى مجموعه " [٣] .

ويستشهد الأمير بقضية تاريخ جزيرة العرب [٤] ، فان تاريخ العرب الأولين لم يبدأ

---

[١] شكيب ارسلان / ابن خلدون / جـ ١ ص ٣٢

[٢] المرجع السابق جـ١ ص ٣٣

[٣] المرجع السابق جـ ١ ص ٨٥

[٤] القضية الاصيلة ، ارتقاء مدينة العرب الى درجة عليا فى اعصر متوغلة فى القدم ..وهذا يثبت استحالة صحة رواية الطوفان الواردة فى التوراة : وتوضيح ذلك أن الطوفان حسب تقدير هذة الرواية وقع فى القرن ال٢١ أو ال٢٢ ق.م ، أى فى العصر الذى كانت ظهرت قبله فى نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التالية ، وهو ما تؤكده المعارف التاريخية الحديثة ، وعلى ذلك يتصح أنه لم يحدث انقطاع فى هذه الحضارات ، وبالتالى لم تفن البشرية كلها كما تقول التوراة . و فى ضوء ذلك كلة -كما يرى موريس بوكاى - فإن النصوص التوراتية التى وصلت الينا لاتعبر عن الحقيقة ، فلابد من وجود تحريف بواسطة البشر...(موريس بوكاى ، القرآن الكريم والتوراة و الإنجيل و العلم) عن (الإسلام و الأديان) مرجع سابق ص ١٥٥-١٥٦.

فى الحقيقة إلا منذ بدأ السياح الأوربيين بالاطلاع على الكتابات المنقوشة على الأحجار وأخذوا ينظرون فيها إلى أن تمكنوا من حلها وفهم معانيها ، فمنها ما وافق كتابات المؤرخين ، ومنها ما اختلفوا عنها ، إلا أن الكتابات قد جاءت بالجملة مؤيدة للتاريخ ، ولم يبق شك فى صحة المجموع وإن وقع اختلاف فى التفاصيل [١] .

فالأمير شكيب يرفض منهج المحدثين فى تعاملهم مع كل رواية تختلف من العصور الأولى وانتقلت إلى العصور الأخيرة على أنها فى عداد الأساطير ، ويرى أن الكشوف الكثيرة التى تعاقبت خلال القرن التاسع عشر وتبين منها أن روايات الأقدمين لم تكن كلها من قبيل الأساطير يجب ان تكون عبرة ودرسا للباحثين " لأن الرفض بغير برهان أضر بالبحث من القبول بغير برهان ، لأن الذى يجزم برفض خبر قديم إنما يحكم بالاستحالة على الممكنات الكثيرة التى تجوز ولا تمتنع فى العقول ، وخير منه - عقلا - من يقبل شيئا ممكنا ، وإن لم يقم البرهان على وقوعه فعلاً كما وقع غيره من الممكنات " [٢] .

فالأمير لايستبعد قيام حضارات انسانية فى أزمنة موغلة فى القدم كما جاء فى الأخبار القديمة وإن لم تتكشف بعد الآثار التى تحدد متى ظهر هذا الإنسان المتمدن - انسان الحضارة - [٣] على نحو دقيق ، إلا أن مسألة وجود الإنسان المتحضر قبل عصور التاريخ مرتبطة بالبحث عن أصل الإنسان ومكانه من الدين ، ويتجلى من خلالها موقف الأمير من مذهب النشوء والارتقاء أو التطور .

مذهب النشوء والإرتقاء

تعرض الأمير شكيب أرسلان لمذهب النشوء والإرتقاء فى تعليقاته على ابن خلدون ، وحث الناشئة من الأمة الإسلامية على ان يطالعوا هذا المذهب وغيره مما جد من النظريات المحدثة ، ويقارنوها بالنظريات القديمة ليظلوا على وعى بكل فكر جديد فى المجتمع الإنسانى [٤] . فالأمير يرى ان من اهم العلوم وألذها مطالعة الوقوف على كيفية نشوء مبادئ الحضارة الإنسانية ووضع أصولها ، ولكن ليس معنى هذا انه مقتنع بكل ما جاء فى

---

[١] شكيب ارسلان / تعليقات على ابن خلدون ، ص ٨٥

[٢] عباس محمود العقاد / الانسان فى القرآن ص ٧٦

[٣] " انسان الحضارة ذلك الانسان الذى عرف الشريعة ونظام المعاملة وسخر الحيوان . " المرجع السابق ص ٧٤

[٤] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول ص ٣٢

نظرية التطور ، بل دفعه حرصه على الا يفوت الناشئة شئ ممايجب معرفته على أهل هذا الزمان ، ولو من قبيل العلم بالشيء ولا الجهل به ، إلى اضافة تلك الأفكار الجديدة والنظريات التى لم تكن معروفة فى أيام ابن خلدون ، أو كانت معروفة ولكن عند غير أتباع الأديان الثلاثة : الإسلامية ، والنصرانية ، واليهودية إلى تاريخ ابن خلدون حتى يظل صالحا لكل الأعصر [١] .

والملاحظ أن الأمير يتناول جانبا واحدا من جوانب نظرية التطور ، فيتعرض لمن يقصرون التطور على الأحياء أو الجانب المتعلق بعالم الكائنات الحية العضوية التى تشتمل على النبات والحيوان والإنسان ، ولا نحيط بما عداها من الموجودات غير العضوية ، ولايتعرض الأمير لمن يعمم تطبيق النظرية على الكون كله بمااشتمل عليه من مادة وقوة .. وهؤلاء "القائلون بالتطور العام يواجهون مسألة الإيمان بالخالق ، فى كلامهم عن العالم وعن القوى المسيرة له من خارجه أو داخله ، ... ولابد للقائل بتعميم التطور من الفصل فى مسألة البداية والنهاية ... وهى لاتنفصل عن مسألة الخلق والخالق فى جملتها" [٢] . "أما الذين يقصرون التطور على الأحياء ، يرجعون فى تعليل تطورها إلى عوامل الطبيعة ، وما تشملة من مؤثرات البيئة والمناخ وموارد الغذاء ووسائل الحصول عليه ، ولا يضرهم القول بهذا التطور إلى التعرض لما وراء هذه العوامل الطبيعية باثبات أوانكار" [٣].

ومن أشهر علماء هذا المذهب العالم الإنجليزى ، شارل دارون (١٨٠٩-١٨٨٢) الذئ يشير الى الحد الفاصل بين البشرية والحيوانية أو مدى سريان التطور على الجنس البشرى فيقول إنه "يتكلم عن الأطوار التى تؤثر فى جسد الإنسان ولاشأن له بما عدا ذلك من الملكات الروحية التى يقررها له الدين" [٤] .

وبناء على هذا فإن الأمير شكيب يقرر فى بداية حديثة عن أصل وجود الإنسان على وجه الأرض ، "إن الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبوا البشر هو منصوص عليه فى الكتاب ، فأما المدةالتى ضربها أصحاب التوراة لوجود الإنسان فليس فى القرآن الكريم شئ يدل عليها

---

[١] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول ص ٣٢

[٢] ، [٣] عباس محمود العقاد ، الانسان فى القرآن ص ٨٠

[٤] المرجع السابق ص ٨٩

بل هناك هذه الآية الكريمة ((ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم))" [١] فلاتعارض بين اعتقاد علماء أوربة بمئات ألوف من السنين مضت على وجود الانسان ،فضلا عن وجود المادة الأرضية نفسها وبين البداية التى يقررها القرآن بآدم وحواء. ثم لايذكر عدد السنين التى مرت على الإنسان ، وهى النظرية الاجمالية التى يصح الحزم بها والتى معناها كون الانسان وجد ، لا من خمسة آلاف سنة ، ولا من سبعة آلاف سنة ، بل من أضعاف هذا العدد من السنين بينما تبقى نظريات النشوئيين الذين جزموا بقدم عهد الانسان وتطوره بناء على ما كشفوه فى باطن الأرض ، وما نقبوا عنه فى الكهوف والغيران ، وما عثروا عليه عرضا واتفاقا فى قيعان البحيرات ، يقول شكيب إن معلوماتهم مفتقرة إلى الإكمال [٢]

. ثم يستطرد الأمير فى عرض الأدوار التى قسمها علماء الغرب للمدة التى قضاها الإنسان منذ وجد على سطح الكرة إلى أن صار معروفا عند أعقابه فيقول إن اقرب الأدوار التى يزعم علماء أوربا الذين لا يتقيدون بالكتب الدينية أنهم وجدوا عظاما بشرية تدل على إمكانية

---

[١] تعليقات الأمير على ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص ٣٢ - آية : ٥١ سورة الكهف

ولهذة المطابقة بين دقة الإشارات الخاصة بالظواهر الطبيعية فى القرآن الكريم وبين المعارف العلمية الحديثة ، أقدم الدكتور (موريس بوكاى) على عقد مقارنة بين نصوص كتب اليهود و النصارى وبين القرآن الكريم ، وخلص منها الى التأكيد بأن القرآن هو الوحى الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل -عليه السلام- وقد كتب فور نزوله ويحفظه و يستظهره المسلمون عند الصلاة ، وأنه لا يحتوى على مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث . (د.مصطفى حلمى ، الاسلام و الأديان (مرجع سابق)ص ١٤٨).

ولقد قدم (بوكاى) نتيجة بحثة التى تشرف أهل العلم فقال : << كان هدفى الأول هو قراءة القرآن ، ودراسة نصة آية آية مستعيناً بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية و انتبهت بشكل خاص الى دقة بعض الإشارات الخاصة بالظواهر الطبيعية ، ومطابقتها للمفاهيم التى نملكها اليوم عن هذة الظواهر نفسها ، والتى لم يكن لأى إنسان فى عصر محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون عنها ادنى فكرة ، ثم قرأت إثر ذلك مؤلفات كثيرة خصصها كتاب مسلمون للجوانب العلمية فى القرآن ، وعلى حين نجد فى التوراة أخطاء علمية فادحة ، فإننا لا نجد فى القرآن أى خطأ....>>.

وينتهى بوكاى الى تقرير تلك الحقيقة : << ... ليس هناك أى مجال للشك : فنص القرآن الكريم الذى نملك اليوم ، هو النص الاول نفسه و من ذا الذى كان فى عصر نزوله يستطيع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافتنا العملية ؟ حقا إن فى إشارات القرآن قضايا ذات صبغة علمية تثير الدهشة >>.

(موريس بوكاى ، القرآن و التوراة و العلم ، ١٤٤-١٤٨) ط دار المعارف بمصر ١٩٧٧.

[٢] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون جـ ١ ص ٣٢ ، ٣٣

تواجد الإنسان فى هذا الدور ، هو الدور الرباعى ويقال له الجليدى "ولم يقع الاستدلال على وجود الإنسان فى تلك الأعصر بالرمم البشرية فحسب بل وجدت له آثار اخرى من أدوات وآلات وتصاوير يحكم على وجوده بوجودها والأثر يدل على المؤثر. فالانسان وجد فى أواسط أوربة - مثلا - معاصرا للماموث والرنة" [١]

."وبعد بحث وتنقيب واختلاف بين العلماء الجيلوجيين اصطلح الأوربيون على قسمة الادوار التى يعرفونها عن الإنسان الى ثلاثة . وهذه الأدوار الثلاثة هى عبارة عن المدة التى مضت فى بداية العصر الجليدى إلى أن أصبحت الحالة الجوية مقاربة لما هى عليه أوربة اليوم. ويقدرون هذه المدة بألف قرن - أى مائة ألف سنة - [٢]

ثم يعرض الأمير للاختلافات التى وقعت بين علماء أوربا حول الدور الذى ظهر فيه الإنسان ، مثل ذكرهم الدور الثلاثى الذى سبق الدور الرباعى أو الجليدى واختلافهم حول إمكانية ظهور الانسان فى هذا الدور وتحمله مالم تتحمله الحيوانات الكبيرة وفى عدم امكان ذلك. "فبعضهم ذهب الى ان الانسان وجد فى الدور الثلاثى بدليل وجود أدوات حجرية لايمكن صنعها إلا بيد مخلوق هو على شيء من العقل ، وذهب المنكرون لوجود الانسان فى الدور الثلاثى الى ان الأدوات المذكورة هى أحدث عهدا من ذلك الدور" [٣] .

ثم ينتهى الأمير إلى القول أن المفروض - مع الترجيح التام - أن الانسان وجد فى الدور الرباعى .

ثم يسوق الأمير الأدلة والشواهد التى اعتمد عليها أصحاب نظرية التطور لإثبات أن الإنسان وجد فى العصر الرباعى ولكن على نحو أدنى من البشر الموجودين الآن ...

---

[١] ، [٢] ، [٣] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون جـ ١ ص ٣٢ ، ٣٣ .

"فأما من بقايا العصر الرباعي فقد وجدوا أكثر من رمة واحدة ، ووجدوها كلها متشابهة ، منها واحدة وجدت في جبل طارق ، واخرى في (سبى Spy) من بلجيكا ، وأخرى في فرنسة ، ووجدوا من هذا النوع نفسه في أفريقيا الجنوبية في روديزيا ، فثبت من تشابه جميع هذه الرمم وجود طبقة بشرية في الدور الرباعي المذكور ، اصطلح العلماء على تسميتها بطبقة (نياندرتال Neanderthal) وذلك لأن أول مثال منها وجد في واد اسمه وادى نياندرتال في المانيا" [١] .

ولقد تأكد العلماء ان أصحاب هذه الرمم بشر بما وجدوه معها من أدوات مصنوعة بالأيدى لا تدع شكا في بشريتهم ، "ولكن كانت رؤوسهم مشابهة جداً لرؤوس الحيوانات، وكانت الجمجمة مسطحة ، والجبهة ضيقة ، وكان القسم الأدنى من الرأس ضيقا ، والوجه عريضا ، والفكان ناتئين الى الأمام ، والتقاطيع غير منتظمة ، والعيون كبيرة ، والأنف عريضا مع ضيق في مركزه ، والذقن منقبضا ، وغير ذلك من الملامح التي تثبت أن طبقة "نياندرتال" هي من الطبقات البشرية ، ولكنها أدنى من البشر الموجودين الآن..." "وبالاختصار آدمي نياندرتال مكانه هو بين القرد والانسان الأخير .." [٢] .

وهنا تظهر مشكلة الإنسان الأول ، فعلماء النشوء والأرتقاء يقولون : " إن إنسان نياندرتال هو على شبه كثير مع القردة المسماة أنتروبونيد "Anthropoide" ولكن ثبت ان هذا النوع من الانسان وجد في اواسط الدور الرباعي ، ولهذا لايمكن أن يقال إنه أقدم نوع من البشر ، لأنه قد ثبت وجود آثار الانسان في أوائل الدور الرباعي.." [٣] .

يقول شكيب إن العلماء عندما وصلوا إلى هذه النقطة صاروا يتساءلون كيف يمكن التلفيق بين هذين الأمرين؟

"فذهب هيكل " Heackel" الألماني من أقطاب علماء النشوء والارتقاء إلى أن الإنسان لم ينحدر من القرد المعروف بشبهه للإنسان الذي يقال له "أورانج أوتان" [٤]

---

[١] : [٤] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون جـ ١ ص ٣٤ ، ٣٥ / (orang-outang) هذة كلمة من لغة الملايو مركبة من مقطعين (أوران) أى رجل و (أوتان) اى غابة ، وهو قرد يشبة الإنسان لا ذيل له ، ولا أشداق مدلاة ، وهو يعيش في جزيرتي بورنيو و سومطرة ، ويمكن استئناسه إذا كان صغيراً ، كما يمكن تدريبة على تادية بعض الخدمات ...

(د.محمود قاسم ، جمال الدين الافغاني حياتة وفلسفتة ، ص ٢٠٦)

"وقال أضداد نظرية النشوء والارتقاء إنه لايزال بين أقدم الطبقات البشرية وأقرب القردة إلى الإنسان مسافة شاسعة ، ولذلك يفترض وجود طبقة متوسطة وسموا هذا النوع بيتيكانتروب "Pithecanthope" فذهب بعض علماء أوربة إلى أنه إن كان قد وجد شبه بين آدمي نياندرتال وبين الآدمي المسمى بيتيكانتروب وبين هذا وبين القرد المسمى أورانج أوتان ، فليس يستلزم ذلك حتما أن يكون الانسان الحاضر هو من هذه السلائل ، بل انسان نياندرتال انقرض في أواسط الدور الرباعي ولم يترك بقايا" [١] . ثم يواصل الأمير في وجوه الخلاف بين علماء النشوء والارتقاء وبين خصومهم الذين قالوا : إن الأثار البشرية التي عثروا عليها لاتصلح حتى الآن مدارا للحكم ، وخالفهم الذين قالوا ان بين إنسان نياندرتال والانسان الحالي وجوه شبه كثيرة وأنه لايمكن الحكم بانقراض إنسان نياندرتال وتبدل منه إنسانا من نوع آخر أكمل من الأول وهو الذي يسموه بالانسان العاقل "Home Sapiens" [٢] . ويعلق الأمير شكيب بقوله: "فإذا ثبتت نظرية الانسان العاقل هذا فيكون قد انقطع مابين الانسان الحالي وبين الانسان الأصلي الذي عاش في النصف الأول من الدور الرباعي والذي يشابه القرد كثيرا" [٣] . بعد سلالة نياندرتال أخذ الأمير في تعداد السلالات البشرية التي افترض علماء النشوء والارتقاء وجودها بناء على الرمم التي وجدوها في أوروبا ، فذكر اسم كل سلالة والمكان الذي عثروا على بقاياها فيه وصفة الهيكل الخاص بكل نوع والذي يدل على مدى قرب أوبعد صفات كل سلالة من هيئة الانسان الحالي. وقد اختلطت هذه السلائل بعضها ببعض ، ومازال الانسان يتكمل الى ان صار كما هو الآن ، ومازال يزداد بسطة في العلم والجسم ، وقد بدأ بأن يصنع بيده في الدور الرباعي وهو ما يسمى "بالدور الحجري" فقد وجدوا حجارة مقطوعة من أيام هذا الدور ، ثم بكرور الزمان صار الانسان ينحت الحجر المقطوع" [٤]. ثم أخذ الأمير يعدد تقسيمات العلماء للأدوار التي بدأ الأنسان فيها يعمل بيده ، وقد وضعوا لكل قسم اسما مأخوذا من اسماء الأماكن التي وجدت فيها بقايا صناعية يفترض انها من صنع الانسان الذي عاش في هذا الدور .بعدها يذكر الأمير بالنقص في الأبحاث التي اعتمد عليها علماء الغرب لوضع تقسيماتهم للأدوار التي بدأ الانسان فيها يعمل بيده "لكون هذه التقاسيم كلها مبنية على الرمم التي وجدت في أوربة ، والعلماء لايعرفون شيئا تقريباعما

---

[١] : [٤] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون جـ ١ ص ٣٥ : ٣٨

وجد من رمم الانسان الأول فى سائر القارات ، ولكنهم يحكمون بأن النشوء والارتقاء حصل من القارات جميعا كما حصل فى أوربة على وتيرة واحدة" [١] .

ثم يختتم الأمير تقديمة لخلاصة ما عند الاوربيين من نظريات حول نشوء الانسان وتطوره فيقرر انه مجرد ناقل لما يجب معرفته عن أهل هذا الزمان يقدمه لقراء تاريخ ابن خلدون حتى لايفوتهم شئ مما يجب معرفته ولو من قبيل العلم بالشئ ولا الجهل به [٢].

---

[١] ، [٢] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون جـ ١ ص ٣٥ : ٣٨

مذهب النشوء والارتقاء في الغرب

على الرغم من انتشار القول بالتطور بين الكثيرين من علماء الغرب إلا أن مذهب النشوء مازال يواجه هجوما شديدا من معارضيه الغربيين ، ولم يقتصر رفض المذهب من علماء الأديان وحدهم بل لقد اعترض عليه علماء الطبيعة أيضا وأقاموا أدلة علمية على فساده كما طلبوا من دعاته تقديم أدلة علمية محسوسة على فعل الانتخاب الطبيعى فى تحول الأنواع ، ولاسيما نوع الانسان .

ومن علماء الطبيعة من أيده وتحمس له مثل " هكسلى " صديق دارون وصهره – ولكن بقى تحمسهم له باسم حرية الرأى أشد من تحمسهم له إيمانا بحقيقته واعترافا بكافة براهينه [١] .

ومن العلماء الطبيعيين من ذهب مذهبا متوسطا ، فوافق على بعض قضايا المذهب الداروينى ، ورد بعضها بحجة فقد الأدلة الكافية .

ولقد أورد الأمير شكيب أرسلان اعتراضات بعض العلماء الغربيين للمذهب ليظهر ان الحملة عليه فى البلاد الغربية لم تكن أضعف من أشباهها التى قوبل بها فى بلادنا الشرقية يوم انتقل اليها للمرة الاولى .

يقول شكيب " وممن اشتهر فى الرد على مذهب داروين الانجليزى ، ولامارك الا فرنسى فى النشوء والارتقاء ، الاستاذ " فيالتون Vialleton " المدرس فى جامعة مونبلييه ، والأستاذ موريس توماس البلجيكى ، وغيرها ممن يقولون ان مذهب لامارك وداروين مناقضان للعلم ، وقال فيالتون : ان داروين قد ذهب فى نظريته مذهبا جاهلا ماهية القواعد التى تترك عليها الجزئيات ، وانخدع بعلاقات الانواع بعضها مع بعض ، كما أن خلفاءه فى المذهب قد نظروا إلى المناسبات الصورية التى بين الانواع نظرا سطحيا ، وقرروا النشوء والارتقاء بدون تأمل كاف فى كيفية قيام هذه الانواع بوظائفها " [٢] .

ثم أخذ الأمير فى عرض أفكار الغرب للأدلة العلمية التى أعتمد عليها النشوئيون لاثبات التطور ، و هى مجرد علامات ووجوه الشبه لايعدو أن يكون إعادة لتصوير المشابه العامة التى يلمحها النظر لأول وهلة بغير حاجة إلى تشريح الأعضاء.

---

[١] عباس العقاد / الإنسان فى القرآن ص ١٠٩

[٢] تعليقات الامير شكيب على ابن خلدون ص ٣٨ (Vialleron) عميد كلية الطب بجامعة مونبلية و استاذ علم الأجنة فيها .(عباس العقاد / الإنسان فى القرآن ص ١٣٢)

" فلأجل الربط بين الحشرات وذوات الأثداء من الحيوانات اعتمدوا على النطاق الصدرى الذى يعهد فى ذوات الأثداء المتصلة بالطيور ، لكن اذا أنعم الانسان النظر لايجد هذه الرابطة فى محلها ، لان هذا النطاق ليس فى الحقيقة جزءا من هيكل الصدر ، بل هو خارج عنه ، وليس له اتصال بالقلب ، ولا بالأعصاب كما هو عند الحشرات فالمشابهه ليست أكثر من مشابهه سطحية والحال أن طبيعة الحيوانات ذات الأثداء لاتمتاز فقط بالنطاق الصدرى ، ولكن بمميزات أخرى ظاهرة فى جميع تكوينها ، وفى انسجتها العضوية ، وفى الجلد والشعر والعظام ، وكل مايعهد فى ذوات الأثداء .. " [١] .

" والخطأ نفسه وقع فى تقدير خصائص الأعضاء ، فداروين يرى أن أى عضو يقدر أن يقوم بأية وظيفة ، وهذا إهمال لحقيقة الوظائف الأساسية . فإن الأعضاء تؤلف مع الأنطقة آلات محركة لها فى كل نوع وظائف محدودة لايمكن أن عملها يتعدى من وظيفة إلى وظيفة ، إذ ليس من وسيط بين الجهازين . ففى طبقة الحيوانات ذوات الأربع إذا وجد نوع طيار مثالا يجب أن الكتف التى كانت فى البطن تحت مركز الثقل تصعد إلى الظهر لأجل ان تحفظ موازنة الحيوان عندما يطير ، ولولا ذلك لايتمكن من الطيران . فهذا المركز الذى تأخذه الكتف من جديد لايمكن أن يحصل بالتدريج ، ولا مناص من أن يكون وضع انفا بدون تدرج . كذلك ذوات الأثداء السابحة التى يسير بها الذنب المتحرك من الأعلى الى الأسفل ، فيجب أن يكون لهذا الذنب قوة وقطر عظيمان ، بحيث أن الشق الأسفل يندفع إلى الأمام فيكون أفقيا بدلا من أن يكون عموديا كماهو فى سائر ذوات الأثداء " [٢] .

وقد أحصى الاستاذ " شابمان بنشر " فى كتابه عن تعليل التطور العلامات التشريحية التى يستند اليها النشوئيون ثم عقب عليها قائلا : " انه لا احتمال لتسلسل الانسان من القردة كما نعرفها ، لأن القردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحيا ان يتطور منه تركيب الانسان ، اذا كان الانسان قد نماله خلال مليون سنة دماغ أكبر وقامة أقوم ويد – فوق هذا وذاك – أصلح للتناول والتصرف بالاستعمال " .

---

[١] ، [٢] تعليقات الامير شكيب على ابن خلدون ص ٣٩

ويقول الأستاذ ث . ب . بيشوب فى كتابه " النشوء منتقدا " : فليس فى السجلات الجيولوجية دليل ولاقرينة تؤيد القول بتطور الانسان من نوع آخر ، وأهم من ذلك أنه لايوجد أمامنا دليل يؤيد تحول الأنواع فى عالم الحيوان أو عالم النبات وأن تشابه الأجنة الذى يتخذه بعض النشوئيون دليلا على التشابه القديم بين أنواع الحيوانات دليل مكذوب ، لأن صور الأجنحة الصحيحة لاتبرز هذا الشبه ، وما عدا ذلك من الصور المتشابهه فهو مزور باعتراف واضع تلك الصور العالم الألمانى الانست هكل ، فإنه أعلن بعد انتقاد علماء الاجنة له أنه اضطر الى تكملة الشبه فى نحو ثمانية فى المائة من صور الاجنة لنقص الرسم المنقول" [١] .

والأمير شكيب يورد نص قول فيالتون : أن القول بأن الجراثيم تعيد فى أثناء نموها الصور المتتابعة التى سبقت نوعها هو قول مرسل جزافا ، وهو أشبه بالمجازمنة بالحقيقة ، ففى الجراثيم شيئان ، البدايات البسيطة التى هى عامة لجميع النوع ثم الأجهزة والصور التى تتلو هذه البدايات . فالبدايات لايمكن أن تكون منها نوع خاص ، لأنها حويصلات بسيطة جدا شبه ببراعم تختلف كثيرا عما سياتى منها ، بل هى بدايات ساذجة عامة لاينتج منها اقسام خاصة الا بعد النمو ، فالحويصلة لايمكن ان تشبه حيوانا تاما مهما كان دنىء الطبقة ، ولكن تشبه حويصلة . والحويصلة البشرية ذات الخلايا لايمكن أن تشبه سمكة فى جهازها التنفسى ، ولكن قد تشبه حويصله السمكة قبل أن يكتمل فيها هذا الجهاز .." [٢] .

---

[١] عباس العقاد ، الانسان فى القرآن ص ١٠٥

<حلما بحث الدكتور (براتس) مذهب (هكل) ، ونظر فى تلك الصور التى استند إليها وجد أنها لم تكن كلها صادقة ، بل بعضها مزوراً . فإن الصورة الثانية والعشرين تبتدئ بالبسيط و الصورة الرابعة عشر التى سماها السوزور والصورة الواحدة و العشرين التى سماها (الإنسان القرد) لم يكن لها وجود البتة . فكتب العلماء على صفحات الجرائد أنة مزور لهاتين الصورتين ، فهددهم برفع دعوى ثم وجد أنة لا مناص من الإقرار ، فكتب مقالة مؤرخة (٢٤ ديسمبر ١٩٠٨) بعنوان :(تزوير صور الأجنة) قال : إنى أعترف رسمياً حسماً للجدل فى هذة المسألة ان عدداً قليلاً من صور الأجنة نحو ستة فى المائة أو ثمانية فى المائة موضوع أو مزور ..... إلى أن قال :(فبعد هذا الإعتراف يجب أن أحسب نفسى مقضياً على و هالكاً و لكنة يعزينى أن أرى بجانبى فى كرسى الإتهام مئات من شركائى فى الجريمة و بينهم عدد كبير من الفلاسفة المعول عليهم فى التجارب العلمية وغيرهم من علماء الأحياء (البيلوجيا) فإن كثيراً من الصور التى توضح علم أبنية الأحياء و علم التشريح و علم الأنسجة و علم الأجنة المنتشرة المعول عليها مزور مثل تزويرى تماماً لا يختلف عنة فى شئ >> .

(قيس القرطاس <حنظرية داروين بين مؤيديها و معارضيها >> ص ٣٣-٣٤)

[٢] تعليقات الامير شكيب على ابن خلدون ص ٣٩

ويكتفى الأمير شكيب بما أورده من ردود مفكرى الغرب وعلمائه على مذهب دارون ، ويحيل من أراد التوسع فى هذا الموضوع الى كتاب فيالتون المسمى : " بأصل الكائنات الحية وخيال النشوء والارتقاء " .

ثم ينتقل الأمير للحديث عن أثر مذهب النشوء والارتقاء فى الشرق وما قوبل به من الاعتراض ثم الرد عليه من قبل المفكرين وقراء العلم ورجال الدين الشرقيين كما تتابعت قبل ذلك بين مفكرى الغرب وقرائه .

مذهب النشوء والارتقاء فى الشرق العربى

لقى مذهب النشوء والارتقاء فى الشرق العربى مثل مالقيه من التحريف والإعتراض فى البلاد الأوربية ، ولقد تصدى للرد عليه فى الشرق العربى نخبة من المفكرين وقادة الإصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية .

يقول الأمير شكيب : " ولقد كان أول من كتب عن مذهب داروين باللسان العربى الدكتور شبلى شميل اللبنانى ، نشر فى ذلك كتابا فى مصر ضمنه مذهب داروين الإنجليزى ونجز الالمانى وجعل له مقدمة جاهر فيها بالمذهب المادى مجاهرة لم تسبق لأحد غيره فى الشرق ، ورد عليه اذ ذاك الأستاذ الشيخ إبراهيم الحورانى من علماء المسيحيين الذين يردون المذهب المادى . وكذلك رد عليه اليسوعيون فى بيروت ، وبعض القسيسين المارونيين ..... " [١] .

والأمير يشير فى هذا الإيجاز إلى المناقشات التى اشتدت بين منكرى المذهب ومؤيديه فى الشرق العربى بعد إعلان المذهب على يد الدكتور شبلى شميل وهو أحد أنصار مذهب النشوء ومن أشهرهم وأفصحهم بيانا فى الشرق العربى ، حتى أنه كان يسبق دارون وأصحابه الى الاخذ بالنظريات النشونية على علاتها وإلى نفى كل صفة روحية أو غيبية فى الانسان " إذ قال فى مقدمة ترجمته لشرح نجنز على مذهب دارون : " أن الإنسان على رأى هذا المذهب طبيعى هو وكل مافيه مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبق سبيل للريب فيها اليوم ، ولو اصر على انكارها من لا يزال مفعول التعاليم القديمة راسخا فى ذهنه رسوخ النقش على الحجر .... فالإنسان يتصل اتصالا شديدا بعالم الحس والشهادة ، وليس تركيبه فى شىء من المواد والقوى يدل على اتصاله بعالم الروح والغيب ، فان جميع العناصر المؤلف منها موجودة فى الطبيعة وجميع القوى التى فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة .. فهو كالحيوان فزيولوجيا وكالجماد كيماويا ، والفرق بينه وبينها فقط بالكمية لا الكيفية والصور لا الماهيـــــة والعرض لا الجوهر .... فالإنسان يحس ، والحيوان يحس ، والإنسان يدرك ، والحيوان يدرك ، ونواميس التغذية واحدة فيهما ... غير أن الانسان يدرك أكثر من الحيوان لأنه أكمل تركيبا من الحيوان " [٢] .

---

[١] تعليقات الامير شكيب على ابن خلدون ص ٤٤

[٢] الانسان فى القرآن ، العقاد (مرجع سابق) ص ١٣٤

وقد تصدى للرد على الدكتور شبلى شميل الأستاذ ابراهيم حورانى – وهو عالم لغوى مطلع على المباحث العلمية – الف فى الرد على مذهب دارون رسالة " مناهج الحكماء فى نفى النشوء والارتقاء " ثم اتبعها برسالة " الحق اليقين فى الرد على بطل داروين " وطبعها ببيروت (سنة ١٨٨٦) ردا على مناقشة الدكتور شبلى شميل لرسالته الاولى .

والأستاذ حورانى يبدأ رده بذكر آراء علماء الطبيعة المخالفين لداروين فى القول بتحول الانسان عن غيره من الحيوان ، قال : " أن العلماء لم يثبتوا مذهب دارون وكذلك نفوه وطعنوا فيه مع علمهم أنه بحث فيه عشرين سنة ومنهم العلامة ونشل مع أنه من أشد الناس ميلا إلى القول بالإرتقاء بفعل الله ... ومنهم العلامة ولاس قال ماخلاصته ان الإرتقاء بالإنتخاب الطبيعى لايصدق على الأنسان ولابد من القول بخلقه رأسا ... ومنهم الأستاذ فرخو قال أنه يتبين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقا بعيدا ، فلا يمكننا ان نحكم بأن الانسان سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولايحسن ان نتفوه بذلك ..... [١] .

ويرى الأستاذ حورانى ان أنصار مذهب النشوء ينقسمون إلى ثلاث فرق : معطلة ولاأدرية والهية .. " أما المعطلة فهى التى نفت الخالق سبحانه وقالت بقدم المادة .. وأما اللاأدرية فهى التى لم تتعرض لنفى الخالق ولا لاثباته ، وأما الالهية فهى التى اعترفت بالواجب تعالى ، وقالت بأنه خالق المادة والحياة ، وانقسمت هذه الفرقة الى اثنين ، ظنت احداهما الانسان ابن القرد او صنوه ومنها داروين ، وقالت الاخرى بان الله خلق الانسان من البدء انسانا ومنها العلامة ولاس ، وعلماء هذه الفرقة اصحاب النشوء الالهى الذى قالت بامكانه وصرحت بعدم البرهان على وقوعه وبأن عليه اعتراضات لم تدفع دفعا مقنعا " [٢] .

ثم أورد الأستاذ حورانى إحصاء بعض علماء الحفريات عن الأنواع التى وجدت فى باطن الأرض ، فقال أن ثمانية وعشرين فى المائة منها أنواع لم تتغير ، وسبعة فى المائة أنواع مهاجرة ، وخمسة وستين فى المائة لاسلف لها . وأما الأنواع التى نشأت بالتغير أو الأنواع الجديدة ، فلا وجود لها فى شىء من بقايا الحفريات .

---

[١] المرجع السابق نفسه ص ١٢٤

[٢] المرجع السابق ١٢٤ – ١٢٥

ويرد الأستاذ حوراني على استدلال النشوئيين بتشابه الاجنة بين الانسان وبعض الحيوان ، فيقول ان على هذا التشابه " ببساطة التكوين وقصر النظر .. بدليل ان التباين يعظم على توالى اقترابها من كمال التكوين ، فلا ينشأ من بيوض الانسان أو أجنته سوى أناس ، ولا ينشأ من بذرة اللوز إلا اللوز " [١] .

ويحيل النشوئيين الى بحث التيرانولوجيا – أى المشوهات – لتفسير الأعضاء الأثرية التى تثبت بعد ولادة الجنين ، ومن أمثلتها (الأعنش) أى من له ستة أصابع وهو من أبسط الأمثلة ، والأشوه المزدوج كهيلين وجوديث وهما الأختان الهنغاريتان المشهورتان ، كانتا ملتصقين بالمتين والأفخاد والأحقاء ولدتا سنة ١٧٠١ وعاشتا اثنتين وعشرين سنة وكانتا مختلفتى السجايا والأخلاق [٢] .

وقال عن الإنتخاب الطبيعى أنه لايمكن " أن يكون أس الارتقاء الداروينى لأن الطبيعة انما تؤثر فى الموجود ، وليس لها ان توجد المعدوم ، فيمكنها أن تعمى العيون ... ولكنها لاتستطيع أن توجد البصر " ، " ويقتضى مذهب داروين أن لاتجتمع الأنواع الدنيا والعليا بل تتعاقب وتسبق الأولى والثانية أبدا ،ولكن ذلك الاجتماع ثبت فى المنقرضات والأحياء " [٣].

أما رأي الأستاذ حوراني في مسألة قدم الإنسان فيظهر فيه تأثره بما جاء في التوراة حول تقدير عمر الإنسان ، فمذهب داروين يقتضي أن يكون الإنسان قديماً جداً " ولكنه تبين لأشهر العلماء وأكابرهم من النشوئيين وغيرهم أنه أحدث الأحياء وأنه كان من بضعة آلاف سنة ، وأثبت العلامة دوسون أنه كان في ثاني العصر الجليدي وهو المعروف بالأكثر أحدثية ... وقال الدكتور هويدن : نظرت أربع فرق مستقلة من الجيولوجيين في زمن نشوء الإنسان فاتفقت على أنه نشأ منذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة ... [٣] .

أما ردود الدكتور شبلي شميل على مناقشته فكانت تكرارا لردود دارون ونجز وغيرهما من القائلين بتحول الأنواع ، وفحواها :

١– ان التباينات بين الأنواع لاتزيد على التباينات بين أفراد لنوع الواحد الا بالوراثة ، وهذه أثر ثابت لايحكم عليه بالفترة المعلومة من تاريخ الانسان لانها ثبتت بعد انقضاء مئات الملايين من السنين ..

---

[١] ، [٢] المرجع السابق ١٢٤ – ١٢٥

[٣] المرجع السابق

٢- وإن أنصاف الأنواع ليس من شأنها أن تعيش وتنقل ميراثها إلى زمن طويل ، لأن التوريث مرتبط بتمام الجهاز المميز للنوع وهو لا يتم فى أنصاف الأنواع ، ولكن قد يدل عليه التناسل بين بعض الحيوانات كالخيل والحمير أو الكلاب والذئاب ، وقد يدل عليه " اكتشاف الطير العجيب - الاركوبتركوس - الذى وصل بين طائفتين من الحيوان منفصل بعضهما عن بعض انفصالا تاما وهما الطيور والحشرات " [١] .

٣- إن العلماء يخطئون فى وضع حدود الأنواع ، وقد ذكر دارون " أن النباتى الإنجليزى وستن يذكر ١٨٢ نباتا انجليزيا عدها غيره أنواعا مع أنها تباينات ، وقد قال هوكر فى هذا المعنى مانصه : إن النباتيين يعدون الآن من ٨٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ نوع من النبات ، فالنوع إذن غير محدود " .

٤- ان التحولات لاينبغى أن يبحث عنها فى الأنواع الحاضرة ، لأن كلا منها تطور عن أنواع سابقة له فى سلسلة هى التى كان يمكن أن يجرى بينها التحول فى أوانه ، ولكن الأنواع الحاضرة تباعدت عن أصولها فابتعدت الأشباه المتحولة فيما بينها [٢] .

وفى إبان إحتدام المناقشة بين منكرى المذهب ومؤيديه نشر الأستاذ الشيخ محمد عبده رسالة أستاذه جمال الدين الأفغانى المعروفة باسم " الرد على الدهريين " وفيها يتعرض لمذهب النشوء والارتقاء ويناقشه ، ويزد على ماجاء فيه من نظريات .

وقد دافع الأمير شكيب أرسلان عن خوض الشيخ جمال الدين فى نظرية يلزم للخوض فيها التخصص فى العلوم الطبيعية فرأى أن هذا الاعتراض على الشيخ ليس بشىء ، " لأن التخصص شرط المباحث التفصيلية ، فأما فى المبادىء العامة فالذى يلزم إنما هو الفلسفة ، ومن كان أطول فيها باعا وأفسح نظرا كان أحق بأن يتكلم بها ، فالسيد جمال الدين إذا يقدر أن يقول هنا " [٣] .

ونقل الأمير فقرات من كتاب الشيخ جمال الدين المعروف " بالرد على الدهريين " يناقش فيها مذاهب الدهريين فى كيفية نشوء مبادىء الحضارة الانسانية ووضع أصول الأنواع ، ويخوض خلالها فى مناقشة نظرية النشوء والارتقاء .

---

[١] المرجع السابق

[٢] المرجع السابق ص ١٣٤ - ١٣٥

[٣] تعليقات الامير شكيب على ابن خلدون ص ٤٠

قال السيد جمال الدين : " ولما كشفت علوم الجيلوجيا (**طبقات الأرض**) عن بطلان القول بقدم الأنواع رجع المتأخرون من الماديين إلى القول بالحدوث . ثم اختلفوا فى بحثين ، الأول بحث تكون الجراثيم النباتية والحيوانية ، فذهب فريق إلى أن الجراثيم على اختلاف أنواعها تكونت عندما أخذ إلتهاب الأرض فى التناقص ، ثم انقطع التكون بانقضاء ذلك الطور الارضى ، وذهبت أخرى إلى أن الجراثيم لم تزل تتكون حتى اليوم خصوصا فى خط الإستواء حيث تشتد الحرارة .

وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياة نباتية او حيوانية خصوصا بعد ماتبين لهم أن الحياة فاعل فى بسائط الجراثيم ، موجب لا لتئامها ، حافظ لكونها . وأن قوتها العادية هى التى تجعل غير الحى من الأجزاء حيا بالتغذية فإذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجاذبها ، ثم صارت إلى الانحلال . وظن قوم منهم أن تلك الجراثيم كانت مع الأرض عند انفصالها عن كرة الشمس وهو ظن عجيب لاينطبق على أصلهم من أن الارض عند الانفصال كانت جذوة نار ملتهبة ، وكيف لم تحترق تلك الجراثيم ولم تمح صورها فى تلك النيران المستعرة ؟! .

والبحث الثانى من موضع اختلافهم صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها إلى ذروة كمالها (يقول شكيب : وصل السيد هنا إلى مذهب النشوء والارتقاء) وتحولها من حالة الخداج والنقص ، الىمانراه من الصور المتقنة ، والهيآت المحكمة ، والبنى الكاملة ، فمنهم قائل : إن لكل نوع جرثومة خاصة به ، ولكل جرثومة طبيعة تميل بها إلى حركة تناسبها فى الأطوار الحيوية ، وتجتذب إليها مايلائمها من الأجزاء الغير الحية ليصير جزءا لها بالتغذية ، ثم تجلوه بلباس نوعه . وقد غفلوا عما أثبته التحليل الكيماوى من عدم التفاوت بين نطفة الانسان ونطفة الثور ونطفة – الحمار مثلا – وظهور تماثل النطف بالعناصر البسيطة . فما منشأ التخالف فى طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها ؟! ومنهم ذاهب إلى أن جراثيم الأنواع كافة – خصوصا الحيوانية – متماثلة فى الجوهر ، متساوية فى الحقيقة ، وليس بين الأنواع تخالف جوهرى ، ولا إنفصال ذاتى . ومن هذا ذهب صاحب هذا القول إلى جواز انتقال الجرثومة الواحدة من صورة نوعية إلى صورة نوعية آخرى بمقتضى الزمان والمكان وحكم الحاجات والضرورات ، وقضاء سلطان القواسر الخارجية.

ورأس القائلين بهذا القول "دارون" وقد ألف كتابا فى بيان أن الإنسان كان قردا ، ثم عرض له التنقيح والتهذيب فى صورته بالتدريج على تتالى القرون المتطاولة ، وتأثير

الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى الى برزخ "أوران أوتان" ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الإنسان فكان صنف "البيم" وسائر الزنوج ، ومن هناك عرج بعض أفراده الى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الإنسان القوقاسى..

"ويشير الأمير هنا إلى أن الداروبين يستندون فى النشوء والارتقاء على جماجم وجدت فى أوربة تحت الأرض ، وليست هذه الجماجم وهذه الهياكل أقرب إلى الإنسان القوقاسى منها إلى الإنسان الزنجى ، ولاتعنى بالعكس ، بل هى ناقصة عن كل منهما".

ثم يقول السيد جمال الدين: "وعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك !!"

ويعلق الأمير شكيب على قول السيد هذا عن مذهب داروين بانه لا مبالغة فيه "لأن هذا المذهب يجعل البيئة والاحتياج والضرورة والتأثيرات الخارجية هى منشأ التنوع وأن كرور الدهور تحت هذه التأثيرات يؤدى الى ما يظهر عجيبا وربما يظهر مستحيلا وليس الأمر كذلك عندهم ، وأن الذى جعل كيماويا كبيرا مثل (برتلو) يسمى مذهب دارون قصصا متسع الخيال ، وهو حكم داروين بأطراد هذا المبدأ فى المخلوقات" .

ثم يستمر الأمير فى عرض مناقشة السيد جمال الدين لنظرية دارون ، يقول السيد جمال الدين: " فإن سئل دارون عن الأشجار القائمة فى غابات الهند ، والنباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ الا ظنا ، وأصولها تضرب فى بقعة واحدة وفروعها تذهب فى هواء واحد ، وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيته ، وأشكال أوراقه وطوله ، وقصره ، وضخامته ، ورقيته ، وزهره ، وثمره ، وطعمه ، ورائحته ، وعمره ؟ فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والهواء والماء ؟ أظن لاسبيل الى الجواب سوى العجز عنه !! .....

وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور ، والقوى والخواص ، وهى تعيش فى منطقة واحدة ، ولا تسلم حياتها فى سائر المناطق . أو عرضت عليه الحشرات المتباينة فى الخلقة ، المتباعدة فى التركيب ، المتولدة فى بقعة واحدة ولاطاقة لها على قطع المسافات البعيدة لتخلو الى تربة جديدة تخالف تربتها ، فماذا تكون حجته فى علة إختلافها ؟ كأنها تكون كسفاً لا كشفاً !.

بل إذا قيل له : أى هاد هدى تلك الجراثيم فى نقصها وخداجها ؟ وأى مرشد أرشدها الى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ، ووضعها على مقتضى الحكمة

وإيداع كل منها قوة على حسبه ، ونوطها بكل قوة فى عضو إزاء وظيفة ، وإيفاء عمل حيوى ، مما أعجز الحكماء عن درك سره ، ووقف علماء الفسيلولوجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه . وكيف صارت الضرورة العمياء معلما لتلك الجراثيم ، وهادياً خبيراً لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية ؟ لاريب أنه يقبع قبوع القنفذ ، وينتكس بين أمواج الحيرة ، يدفعه ريب ويتلقاه شك الى أبد الآبدين ..... الخ " .

ويمضى السيد جمال الدين فى إبطال المذهب فى جملته وتفصيله ويفند الأدلة التى اعتمد عليها النشوئيون لإثبات نظريتهم مثل الخيل فى سيبريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرا من الخيل المولدة فى البلاد العربية فيقول : " إن السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقلته فى بقعة واحدة لوقتين مختلفين حسب كثرة الأمطار وقلتها ووفور المياه ونزورها أوجد علة النحافة ودقة العود فى سكان البلاد الحارة .. والضخامة والسمن فى أهل البلاد الباردة فمايعترى البدن من كثرة التحلل فى الحرارة وقلته فى البرودة ... " [١] .

ولكن الأمير شكيب لايمضى مع الشيخ جمال الدين فى منحى الجزم بالرفض والحكم ببطلان المذهب ، بل يتوقف عند قول الشيخ : (لايزال يرفعه ريب ويتلقاه شك إلى أبد الآبدين) ويقول عن هذا القول الأخير (ما أحسنه) لأنه " لا "دارون" ولا "مارك" ولا "تجز" ولا خصومهم الكثيرون فى أوربا ، ولا "السيد جمال الدين" يقدر واحد منهم أن يقول قولا فى معضلة كهذه ويسلم من الاعتراض من جهة من الجهات ، وإنما هى نظريات يترجح بعضها فى نظر بعض العلماء ، ولا يكاد يجزم به حتى يقوم فى وجهه مايمنعه من الجزم " [٢] .

فالأمير شكيب أرسلان لايجزم برفض المذهب بل يرى أنه يستحيل القطع بشىء لنقص الأدلة مع تعليق النتيجة بانتظار الأدلة المقنعة ، هذا مع الإيمان به – إذا ثبت – لايقضى بتكذيب العقيدة الدينية ، والعقلية فى الخالق عز وجل وفى القرآن الكريم الذى لم يحدد مدة زمنية لبدأ الخليقة ووجود الإنسان بل قال تعالى : " ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولاخلق انفسهم " :

" فعلم التكوين بنوع خاص بين مد وجزر ، وأخذ ورد ، وعكس وطرد لاينتهى . وكيف يمكن أن ينتهى والآثار التى بنى أصحاب مذهب النشوء والارتقاء عليها آراءهم هى

---

[١] جمال الدين الأفغانى ، الرد على الدهريين ، من ص ١٨ الى ص ٢٣ (تعليقات شكيب على ابن خلدون) ص ٤١:٤٣

[٢] تعليقات الامير شكيب على ابن خلدون ص ٤٣

آثار ضئيلة جدا ، نسبتها إلى الموضوع نسبة النقطة إلى الغدير !!

وقد اعترفوا هم – يقصد النشوئيين – بأن كل ماعثروا عليه فى باطن الأرض إن هو إلا هيكلان أو ثلاثة فى القارة الأوربية ، ولم يعثروا حتى هذه الساعة على شيء فى القارات الأخرى التى هى أوسع من أوربة بكثير ! وما دامت الشواهد ضئيلة إلى هذه الدرجة ومنحصرة فى بقعة واحدة ، فإنه يستحيل القطع بشيء " [١] .

---

[١] تعليقات الامير شكيب على ابن خلدون ص ٤٤

تعقيب

وأمام هذه النهاية تبقى (القضية) أن هؤلاء الذين اعتنقوا المذهب المادي لم يقفوا أمام أي تناقض ، بل لقد عمدوا إلى الأدلة العلمية فحرفوا فيها وزوروا ولفقوا كما فعل (هيكل) في تزوير صور الأجنة واعترافه بذلك ، بل وفي اتهامه لعدد من العلماء ووصفهم بأنهم شركاؤه في الجريمة .[١] وكما حدث في قصة اكتشاف جمجمة إنسان (بلتدون) وكانت تجمع بين الجزء العلوي وله صفات بشرية لاشك فيها ، بينما الفك الأسفل يحتفظ بالعظمة القردية ، ولكن هذه (الجمجمة) التي أقامت الدنيا وأقعدتها وكانت دليلاً قاطعا على صحة نظرية التطور اختلف العلماء في شأنها ، هل تعود لمخلوق واحد أم لمخلوقين «على أن الطامة الكبرى قد وقعت فيما بعد فاكتشف العلماء في سنة ١٩٥٣م أن بقايا إنسان (بلتدون) مزيفة ، وأنها زيفت عمداً بواسطة مكتشفها مستر داوسون المحامي بقصد خدعة العلماء» [٢] فلماذا كل هذا الغش والتزوير اللذين شوها الجو العلمي تشويها بليغاً ؟ إن الإجابة التي لا مفر منها أن أصحاب المذهب المادي يرمون إلى هدف أبعد بكثير من الوقوف عند حدود نظريتهم المادية ، فهم «يهدفون إلى غاية يريدون تأكيدها بعملهم الناقص ، وتلك الغاية هي إنكار الألوهية واستقلال النفس وخلودها ، حتى يستطيعوا التحليل من الدين أو النزول إلى مستوى الحيوان الأعجم الذي يتخذون حياته مثلهم الأعلى » [٣]

---

١ - قيس القرطاس ، نظرية دارون بين مؤيديها ومعارضيها (مرجع سابق) ص٣٣-٣٥ .

٢ - المرجع السابق نفسه ، ص٨٧ .

٣ - د. محمود قاسم ، جمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته ، ص٢١٣ .

رأي الأمير شكيب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية

رأي الأمير شكيب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية

تنبه الأمير شكيب منذ وقت مبكر للخطر الذي تمثله المبادئ الشيوعية والإشتراكية على العالم الإسلامي ، وأكد أن «الشيوعية لابد من أن تنفذ مبادئها إلى البلاد الإسلامية مهما حاولوا وحاولت دول الاستعمار من مقاومة سريانها إلى الشرق»[١] وذلك لأن بلاد الإسلام أصبحت ممهدة لتقبل ذلك الخطر القادم ، «فالمسلمون إلا النادر أهملوا الزكاة وتهاونوا بفرائض الدين لذلك هم مهددون اليوم بخطر الإشتراكية» [٢]

ويرى الأمير أن «المبادئ الإشتراكية» تبث روح التباغض والشحناء وإثارة حرب الطبقات والشقاق في الأمم التي تنتشر بينها [٣]، ومن خصائصها الخطيرة أنها تقوم مقام العقيدة الدينية ، فتنفي الجنسية والقومية ، «إذ كما أن المسلم لابد أن يعترف بإخاء المسلم أيا كان أصله وفصله ، فالإشتراكي لابد أن يتضامن مع الإشتراكي في أي وطن كان ، ومن أي أمة كان ، وإن فضل الوطنية على الإشتراكية ، كان شأنه شأن المسلم الذي يفضل القومية على الإسلام» [٤]

ويرى الأمير أن الشريعة الإسلامية بما تشتمل عليه من مبادئ التكافل والتراحم بين المسلمين ، وبما تفرضه على كل مسلم من أوامر إلهية لا محيد عنها من إيتاء الزكاة - بكافة أنواعها - على الوجه الشرعي كفيلة بأن تحفظ للمجتمع المسلم وحدته وتماسكه في وجه الفتنة القادمة على شريطة أن تقوم الدول الإسلامية بفرض الزكاة ، التي هي ركن من أركان الإسلام على الوجه الشرعي ، وأن يكون لها وزارة أو إدارة في كل حكومة إسلامية ، تنظم أمر استيفائها ، وطريقة انفاقها ، فينتفي بذلك كل فقر وكل خصاصة بين المسلمين ، ويقل تفاوت الطبقات في درجات الرفاهية ، وتتوفر وسائل التمريض والمؤاساة والتعليم ، وتشمل نعماؤها الجميع بدون منه غني على فقير ، ولا اعتداء كبير على صغير ، بحيث إذا دخلت الإشتراكية على بلاد الإسلام ، دخلت بدون ضوضاء ولا شقاق ، بل كانت سببا لإحياء فرض من أقدس فروض الدين ألا وهو

١/٢/٣/٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي جـ٤ ص٣٦٢ .

الزكاة.[١]

ويرى الأمير أن الشريعة الإسلامية بما تفرضه على المسلمين من زكاة هي أوامر إلهية لا محيد للمسلم عن إنفاذها إذا أراد أن يبقى مسلماً ، وقد ورد ذكرها مقرونا بذكر الصلاة مراراً عديدة في القرآن الكريم ، لذلك فهي أوثق ، وأمتن ، وأجدر بأن يلتزم العمل بها المسلمون من المبادئ الإشتراكية المعروفة في أوروبا والتي هي أوضاع بشرية متفق عليها فيما بينهم [٢]

فالإسلام ليس بحاجة إلى الشيوعية ، والشرائع السماوية أقرب إلى المساواة ، وأرفق بالضعف ، وأحدب على الفقر من القوانين البشرية [٣]، هذا مذهب الأمير شكيب أرسلان الذي دعا إليه دائما ، حتى عندما التقى في سنة ١٩٢٧م وهو يزور موسكو «بمدام كولونتاي» الروسية التي يسميها الروس «أم البلاشفة» والتي كان لها اليد الطولي في الثورة التي أطاحت بعرش قيصر ، وأقامت الحكم البلشفي ، وفي أثناء حديثها مع الأمير شكيب أرسلان تحاوره حول الشيوعية ، فيجاهر (شكيب أرسلان) بأن البلاد العربية ليست بحاجة إلى الشيوعية لأن المبادئ الإسلامية فيها ما هو خير من الشيوعية ، ويشرح لها هذه المبادئ فتعجب بها .[٤]

وفي حديث شكيب مع (مدام كولونتاي) يتحدث عن فنون الأوقاف الإسلامية في البلاد الإسلامية ، وهو يقصد أن يعدد وجوه المساعدات الإجتماعية التي أوحت بها الروح الإسلامية ، فيذكر أن الزكاة ليست هي كل ما ينفق في وجوه الخير ، فهي الفرض المحتوم الذي لا مناص منه أولا ، ثم هناك في المجتمع الإسلامي بعد هذا مؤسسات خيرية تسمى (الأوقاف) ، تبلغ نحو الثلث من أملاك المسلمين وجميعها محبوسة العين ، أي لا يجوز بيعها أو التصرف فيها ، وهي مرصودة الريع على وجوه البر وأنواع الإعانة

---

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ص٣٦٢ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ص٣٦٢ .

٣ - شكيب أرسلان ، مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد٤ ص٥٣٥ .

٤ - شكيب أرسلان، الشورى عدد ١٩٢٧/١٢/١٥م (عن «شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام» ص٢٠٨) .

لبني الإنسان .

فمنها مدارس ومستشفيات ودور كتب ، ودور لعلاج المجانين ، ودور لعلاج المجاذيم ، ودور ضيافة ، ومنها ما يوزع الخبز يوميا ، ومنها ما يوزع الحساء (المرق) ، ومنها مؤسسات لأشياء لا تخطر على بال الأوربيين ، ولا يتنبه لها ولا يرصد لها الأرزاق الكافية إلا الأمم التي بلغت الشأو البعيد في الإنسانية .[١]

ولقد بنى الأمير شكيب أرسلان رأيه في هدم الشيوعية على (حقائق الإسلام التي تتوج ما دعمه الفكر الإنساني والنظر العلمي التجريبي) [٢] ، فبين التناقض الذي يقوم عليه الفكر الشيوعي فعلى الرغم من أن الشيوعية دعوة مادية تنكر الأديان كلها ، وتهدمها من أصولها ، وتقتلعها من جذورها ، لأنها تعترف بغير المادة ، ولأنها تصرح بأن الدين وهم ، وبأنه مخذر يتعزى به الفقراء والكادحون ، فيصرفهم عن الكفاح في سبيل نيل حقوقهم إلا أنها تقيم (العقيدة الشيوعية) محل (العقيدة الدينية) وتقلدها في معالمها الرئيسية «حيث نشاهد الماركسية تتحول إلى بديل عاطفي وثقافي للمسيحية الأرثوذكسية مع إحلال ماركس محل موسى عليه السلام ولينين مكان المسيح عليه السلام وقيام مجموعة أعمالهما بدور الكتب المقدسة لهذه الديانة الإلحادية» [٣] أو ما يسميه شكيب أرسلان ، «إنجيل البلشفية الجديد» .

فهذا هو (شكيب أرسلان) يتكلم عما يبذله البلاشفة من جهود في الشرق وفي العالم الإسلامي ، إذ «يهمسون في آذان الشعوب المغلوبة على أمرها ، الناقمة الساخطة (إنجيل البلشفية الجديد) ، حملاً لهم على الهياج والشغب ، ثم الإنتقاض والثورة ، فكل حركة وطنية ومطمح قومي وسخط سياسي ومظلمة إجتماعية وتحكيم جنس في جنس ، جميع ذلك من الوسائل التي يتخذها البلاشفة وقوداً لنار الهياج ، فالإنتفاض ، فالحرب» [٤]

---

١ - المرجع السابق ص٢٠٩-٢١١ .

٢ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص٢١٤ .

٣ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص٢١٤ .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ٢ ص٣٠٠ وما بعدها .

أما القول بأن الدين أفيون الشعوب ، فمن الجهل وصف الإسلام بالأفيون فإن من المعروف أن الإسلام يأبى للمسلم أن ينسى نصيبه من الدنيا ويأمره أن يأخذ من طيباتها ، بل لقد ذهب أعداء الإسلام الذي لاحظوا أنه لا يمكن إتهامه بتحسين الجبن أو الاستكانة لاتباعه بوصفه بنقيض ذلك ، وبالغوا فيما وصفوه فيقولوا عنه إنه دين السيف أو دين القتال .[١]

ويبين الأمير (شكيب أرسلان) ذلك فيقول : إن الزعم بأن الإسلام مبني على الخضوع للقوة القاهرة كذب محض ، واختلاق - من القائل - ، فإن الإسلام أمر بأوامر ونهى عن نواه لابد للمسلم أن يجري عليها إذا أراد أن يبقى مسلما ، مهما وقف في طريقه ولو ذهبت بذلك نفسه ، وهذا مبسوط في كتب الشريعة .. ، وليس للمسلم أن يتقي في دينه إلا في بعض نقاط لا يكون فيها خطر على وجود الإسلام» [٢]

ويمضي شكيب في تأكيد حرص الإسلام على عزة المسلم وعدم استسلامه لقوى الظلم والقهر ، فيقول : «ولو كان الإسلام مأموراً بالإستسلام للقوة الغالبة ، لما قاوم الرسول صلى الله عليه وسلم قريشاً وهي أقوى منه ، ولا قاوم الخلفاء الراشدون تلك الأمم ودوخوها وهم لمي يكونوا شيئا بالقياس إلى ما كانت عليه تلك الأمم . كلا ، فالإسلام مبني على العزة وعدم المبالاة بالحياة ولا بالمال في الذب عن شريعة الإسلام ، وإن القرآن ملآن بذلك والحديث الشريف مستفيض به ، وما سقط الإسلام إلا بعد أن فتر عمل أهله بتلك الآي ، وغلبت عليهم «كراهية الموت وحب الدنيا» وفقا للحديث النبوي الذي أنبأهم بالحالة التي وصلوا إليها وبالأسباب الداعية إلى حصولها ، وهو حديث «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل جانب تداعى الأكلة على القصاع ... الخ» [٣]

---

١ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص٢١٥ (مرجع سابق) .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ٢ ص٣٣٢ .

٣ - المرجع السابق نفسه .

وشكيب يرى أن الدين ضروري للبشر ، وما ثورات (الإلحاد) إلا غمرات ثم تنجلي ، أو فورات ثم تخمد ، وأن النزغات الإلحادية التي تعرض للمجتمع الإنساني في بعض الأوقات ليست إلا عوارض مؤقتة ، لا تستطيع أن تكسب شكلاً عاماً ، ولا أن تستقر وتدوم ، ولا أن تقوم مقام العقائد الضرورية للبشر .

ويقرر شكيب أن التاريخ ينبئنا بأن أماثيل لهذه النزغات وقعت ، حيث عصفت ريح الإلحاد في بعض الحقب ، ثم زالت واستقر الإيمان ، وعاد الأمر كما بدأ .[١]

ويحذر شكيب (ملاحدة) المسلمين الجاهلين أو المتجاهلين لحقيقة ما ينطوي عليه هذا الفكر المادي من محاولة إقامة النهضة العلمية في البلاد الإسلامية على أسس (مادية) لادينية ، فيقول «إننا نخشى إن جردناها من دعوة القرآن أن تفضي بنا إلى الإلحاد والإباحة وعبادة الأبدان ، واتباع الشهوات ، مما ضرره يفوق نفعه» [٢]

ولقد صدق استبشعار الأمير (شكيب أرسلان) للأمور قبل وقوعها ، وسبق عصره في توقع ما أصاب العالم الإسلامي ، بعد أن انحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل فجاءت الحوادث مصداقاً لتكهنه .

وقد بين (شكيب أرسلان) أن هناك غرضين جد وراءهما البلاشفة : «غرض عاجل ، وهو محو التفوق الغربي سياسياً واقتصادياً محواً تاماً ، وغرض آجل ، وهو بلشفة الشعوب الشرقية .. أما في الدور الأول : فالبلشفية مستعدة تمام الإستعداد لإحترام الأديان والعادات والتقاليد الشرقية ، والأخذ بنصرة الحركات الوطنية في الشرق ؛ أما في الدور الآخر فالأديان ، مثل الإسلام ستتقوض تماما » [٣] .

---

١ - شكيب أرسلان ، الإرتسامات اللطاف ، ص٨٤ .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ ص١٣٨-١٣٩ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) ص٣٠٠ ، وما بعدها .

الباب الثالث

الفصل الثاني

الفكر السياسي عند الأمير شكيب أرسلان

- تمهيد : شكيب أرسلان بين (الإصلاح الديني) و (الإصلاح السياسي)
- تصور الأمير شكيب أرسلان للدولة الإسلامية :
- استقلال النظام الاسلامي (الفرق بين الخلافة والملك)
- الأصول والمبادئ العامة التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية :

١ - الشورى .

٢ - المساواة .

٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .

- الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير شكيب أرسلان
- تمهيد
- الجامعة الإسلامية
- الجامعة العربية
- آراء الأمير شكيب أرسلان في التربية
- بعث (المدنية الاسلامية) في مواجهة (الحضارة الغربية)

تمهيد : شكيب أرسلان

بين (الإصلاح الديني) و (الإصلاح السياسي)

كلمة «الإصلاح الإسلامي» من الكلمات الاصطلاحية التي إن لم يتحدد معناها بدقة حتى يكون لها شكل واضح لا لبس فيه ولا إبهام ، كانت مثار خلاف بين الناس ، وأدخلت في باب الإصلاح ما ليس منه .

فإن كان فهمنا «للإسلام» بأنه هو الذي كان عليه نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم وأصحابه مصابيح الهدى رضوان الله عليهم كما فهمه منهم التابعون لهم بإحسان ، فمن الإصلاح الاسلامي تجريد الاسلام من البدع الطارئة عليه ، وتخليصه من الدخيل الذي يحسب الجاهلون أنه منه وما هو منه ، ومن الإصلاح الإسلامي بث روح النشاط في المسلمين لإحياء مقاصد دينهم وتحقيق أغراضه ، وحسن التعبير عنه في الدعوة إليه وتأليف الكتب في حقائقه وأحكامه وتاريخه ، ومن الإصلاح الإسلامي تعويد المسلمين على حسن تمثيل الإسلام بأن يتخلقوا بأخلاقه ويتعاملوا بآدابه وينشئوا أبناءهم عليه حتى يكونوا جنوده في الحمية له ، وأولياءه في السرور بإنتشاره واعتلائه ، والحزن لما يصيب أهله من سوء حيثما كانوا[1].

من هذا المنطلق في فهمنا لمعنى (الإصلاح الإسلامي) نستطيع أن نميز ملامح الخط الإصلاحي الذي سار عليه الأمير شكيب أرسلان .

فقد انطلق الأمير شكيب أرسلان في دعوته الإصلاحية من مقدمة كبرى ، هي صلاحية الإسلام في جوهره لجميع العصور ، وما الوهن والإنحطاط الذي ينعي على الشعوب الإسلامية إلا نتيجة تقاعس المسلمين أنفسهم ، ودسائس الأجانب ومكائدهم ، لا نتيجة فساد ذاتي في معتقدهم الديني - كما يزعم الخصوم - فهذا المعتقد يرتكز على ركائز العقل ويقول بالحرية والإختيار وينكر التواكل والخمول ، ولكن المسلمين قد ضلوا السبيل وتنكبوا عن الإهتداء بهدي دينهم ، فصاروا إلى ما صاروا إليه من

١ - محب الدين الخطيب ، صحيفة الفتح ، عدد ١٧ ربيع الثاني ١٣٥٤هـ .

الإنحطاط والجمود .

وللخروج من هذا المأزق يجب أن يبعث الإسلام من جديد ويطهر من الشوائب التي لحقت به في غضون تاريخه الطويل ، والرجوع الى نهج السلف الصالح ، الذين أرسوا قواعد العقيدة الإسلامية .

يقول الأمير : «إن أسباب الارتقاء كانت عائدة بمجملها إلى الديانة الاسلامية التي كانت قد ظهرت جيداً في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب وتحولوا بهدايتها من الفرقة إلى الوحدة ومن الجاهلية إلى المدنية ، ومن القسوة إلى الرحمة ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد ... فالقرآن قد أنشأهم إذا نشأة مستأنفة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيف في احدى اليدين والكتاب في الأخرى يفتحون ويسودون ويتمكنون من الأرض بطولها وعرضها» [١]

ولم يقف الإسلام عند حد الفتوحات أو إقامة السلطان الواسع ، بل أسهم في بناء مدنية عربية إسلامية وضاءة دانت لها الدنيا سحابة قرون ثلاثة أو أربعة [٢].

---

١ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص٤١ .

٢ - يقول شكيب : «.. وقد بقي دور العرب هو الأول في وقته ، ولبثوا هم المسيطرون في الأرض ، لا يضارعهم مضارع ، ولا يغالبهم مغالب ، مدة ثلاثة قرون أو أربعة ، ثم أخذوا بالإنحطاط ، وجعلت ظلالهم تتقلص عن البلدان التي كانوا غلبوا عليها شيئا فشيئا ، وذلك بفتور الهمم ، ودبيب الفساد إلى الأخلاق ، ونبذ عزائم الدين» لماذا تأخر المسلمون ؟ ص١٢٤/١٢٥ .

ويؤيد الدكتور فهمي جدعان في كتابه : (أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العصر الحديث) ما ذهب إليه شكيب أرسلان بتحديد مرحلة التنوير في تاريخ الحضارة الإسلامية زمنيا بالقرون الأربعة الأولى للإسلام ، وذلك عندما قسم المراحل الثقافية - الإجتماعية لتاريخ الإسلام والعرب حتى يومنا الحاضر بأربعة مراحل هي :

١) مرحلة التنوير وبناء الحضارة ، حيث تشمل زمنياً القرون الأربعة الأولى من تاريخ الإسلام .

٢) مرحلة التوقف الحضاري والتوازن ، وتشمل القرن الخامس الهجري .

٣) مرحلة الإنحطاط واختلال التوازن ، وتبدأ مع الغزالي حتى نهاية القرن الثامن الهجري ، وما تخلل هذه الحقبة من ركود وجمود على الصعيد الفكري ، متلازمة مع وقائع تاريخية مساعدة لهذا الخلل (سقوط الخلافة ، انحسار الوجود العربي ، الغزو التتري ، والمغولي والصليبي) .

٤) مرحلة اليقظة والنهوض : وتبدأ مع العلامة ابن خلدون ومقدمته في البحث عن أسباب وعلل الإنحطاط وصولا إلى مرحلة الإستعمار الأجنبي للعالم العربي ومواجهته بالمدنية الغربية وما نتج عن ذلك من صراع وتوتر فكري=

يقول الأمير : «ومدنية الإسلام قضية لا تقبل المماحكة ، إذ ليس من أمة في أوروبا سواء الألمان أو الفرنسيين أو الانكليز أو الطليان الخ ... إلا وعندهم تآليف لا تحصى في مدنية الاسلام ، فلو لم تكن للإسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعة مبنية على كتابة وسنته ما كان علماء أوروبا ، حتى الذين عرف منهم بالتحامل على الاسلام ، يكثرون من ذكر المدنية الاسلامية ومن سرد تواريخها ، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيات ، ومن تبين الخصائص التي انفردت هي بها» [١]

فهدف الأمير شكيب من حركته الإصلاحية هو إظهار قوة الشرع الاسلامي على إدارة المدنية الحاضرة واتساعه لكل ضرب من ضروب الرقي الصوري أو المعنوي بدون أن يقلق وجدانه المؤمن أو تتخلخل عقيدته ، وبحيث تحبط آمال الاستعماريين الذين يحتالون لوضع الاسلام في موقف المعاند للمدنية .

وجذور هذا الخطر الإصلاحي لدى الأمير شكيب نجدها واضحة في دعوة الشيخ الأفغاني والإمام محمد عبده ، ولا عجب في ذلك فقد ذكرنا أن شكيب تتلمذ على الشيخين ورأى في فهمهما للعقيدة الشكل الوحيد الذي يرجى أن ينهض بالإسلام .

يقول «د.الدهان» في امتداد خط الأفغاني الإصلاحي من خلال محمد عبده ثم شكيب أرسلان : «كان الشيخ (الامام) يردد في مجالسه ما تلقنه على يد جمال الدين الأفغاني من سعي الى الاصلاح وحب للاسلام وذود عن كرامته وتأليف فيه وعمل له ، وكان الإمام لا يفتر عن الحديث في رفع مستوى الأمة وتقديم أخلاقها والنهوض بها نهضة اجتماعية عن سبيل الثقافة والعلم ، في وعي صحيح وفهم عميق لا يسير في تقليد الغرب تقليداً أعمى وإنما يسعى في تربية العقول والنفوس .. وأصاخ شكيب إلى هذا كله واستهوته أحاديث محمد عبده عن شخصية جمال الدين الأفغاني .. هذا اللقاء بين الإمام والفتى كان نقطة تحول الأمير الناشئ صرفته عن الخيال والأحلام إلى واقع

= وثقافي ما يزال حتى أيامنا . د/فهمي جدعان ، أسس التقدم - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨١م .

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج٢ ص ١١٩ .

العرب والمسلمين وأحلامهم والتقدم بهم ورد الاستعمار عنهم» [١]

كان الإمام محمد عبده الحلقة التي ربطت شكيباً إلى حركة الاصلاح التي تزعمها جمال الدين الأفغاني ، لكن شكيباً لم يكن مجرد تابع في فكرة لفكر أستاذيه بل أسهم بوعيه وحسه الفلسفي القادر على ربط ما تفرق وتشتت من معطيات ووقائع ثم ردها إلى مبادئها ، وهو كذلك إستمرار شجاع للخط الإصلاحي ، في تعميمه وتعميقه والدعوة له، كما سعى بكل طاقته إلى تحويله واقعاً فعلياً في السياسة والثقافة والإجتماع .

إن أهم ما قدمه الأفغاني هو ربطه الإسلام الصحيح بالنضال السياسي والإجتماعي الذي يعني تحديداً وحدة الشعوب الإسلامية القادرة وحدها على رد غائلة التدخل الأوروبي [٢] ، وكان يرى أن ما أمكن تحقيقه في بدء (المدنية الإسلامية) وازدهارها ، والإنتصارات العسكرية التي حققتها في صدر الإسلام «يمكن أيضا تحقيقه وذلك بقطف ثمار العقل ، أي علوم أوروبا الحديثة وإعادة بناء وحدة الأمة» [٣].

«ورغم أن محمد عبده قد صاغ برنامجاً عملياً يقوم على (التربية) مدخلاً إلى (الإصلاح) والتغيير» [٤] منتقداً اعتقاد استاذه الأفغاني أن العمل السياسي الصرف كفيل بأن يوصل الأمة إلى الصلاح المطلوب ، فهو يلتقي مع أستاذه في معظم مبادئه وقناعاته وغاياته ، «فهو يلاحظ ، كما الأفغاني ، أن المجتمعات الإسلامية تعاني انحطاطاً أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً يبلغ حد الأزمة والداء ، لكن علة الأزمة والداء لا تقوم في الإسلام ولا في أركانه ، وإنما في الحال الذي انتهى إليها تفكير المسلمين» [٥]

ويرى محمد عبده : أن الإسلام قد بنى مدنية زاهرة وله القدرة على استعادة ذلك ،

---

١ - د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان ، ص١٣٢ .

٢ - د. محمد شفيق شبا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص٤١ .

٣ - ألبرت حوراني ، الفكر العربي ، في عصر النهضة ، ص١٤٥ .

٤ - مقدمات الفكر السياسي ، (مرجع سابق) ص٤٣ .

٥ - المرجع نفسه .

فالإسلام لم يكن دين آخرة وحسب بل هو كذلك دين الدنيا وصلاح الناس وتقدمهم ، لكنه يميز في الموروث الديني الجوهري المبدئي الثابت الذي لا يتغير ، وبين ما هو غير جوهري غير ثابت وقابل لأن يتغير ، بل يجب أن يتغير ويتبدل ليتلائم مع حاضر الناس وواقع مطالبهم وحاجاتهم ، ولذلك فهناك امكانية فعليه للتوفيق بين الإسلام والعصر ، فالإسلام يحث على الأخذ بالنظر والعقل ، والأخذ بالعقل يوجب قبول ما يقدمه العلم الوضعي ومواكبته ثم الإسهام فيه » [١]

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد ابتعد في الفترة الأخيرة من حياته عن التوجيه السياسي مؤثراً تركيز نشاطه الخاص في الجانب العملي والديني [٢] ، إلا أن أفكاره وأفكار أستاذه الأفغاني استمرت في توجيه فكر (شكيب أرسلان) ، ولذلك رأى المستشرق الأسباني المسلم (خيل بن أمية) شكيباً محاولة في السياسة على هدي إنجازات محمد عبده في الإصلاح الديني .

« ... كان الأمير يريد أن يعمل في السياسة ماعمله الشيخ محمد عبده في الدين، وليس من سبيل إلى نكران ما استطاع تحقيقه في هذا السبيل » [٣]

كما أشار إلى ذلك « ألبرت حوراني » بقوله : « أما شكيب أرسلان ، فمع أنه لم يتخل قط عن الاهتمام بالإصلاح الديني فقد جذبته السياسات القومية العربية .. » [٤]

والباحث في فكر الأمير شكيب أرسلان السياسي يجد جذوره ومقدماته في أحوال عصره وأيام سيرته ، ولأن الأمير شكيب أرسلان عاصر حقبة استثنائية في تاريخ الأمة الاسلامية والعربية - نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين - شهد خلالها وقائع خطيرة متشابكة ومتعارضة ورأى بعينيه خلافة تتلاشى ودولة تنهار كما شهد ارتفاع الطابع التوسعي الغربي حتى بلغ ذروته في مطلع القرن العشرين ، لذلك كانت

---

١ - المرجع نفسه ص٤٤ .

٢ - د. محمد البهي ، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص٩٨ .

٣ - محمد علي الطاهر ، ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، ص٣٢٤ .

٤ - ألبرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة ، ص٢٧٠ .

سياسته متنوعة في أشكالها وصيغها ولكنها ظلت ثابتة ومتمسكة بالمبادئ والأهداف المخلصة لعقيدته وأمته .

إن الإسلام - كما فهمه شكيب أرسلان - ليس دين تعبد فحسب ، وإنما هو رسالة من الله جاءت لخدمة الإنسانية وتقديساً لها ، وبرغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض التي تعد خصيم الأمم الغربية وغريمتها ومنافستها في قيادة الأمم ، لذلك كان الإسلام نقيضاً للإستعمار وأداة عمل ضده بقصد خير الإنسانية ولكي يستعيد المسلمون مكانتهم في قيادة الإنسانية إلى السعادة والفلاح في الدنيا والأخرة .

لهذا كانت سياسة شكيب أرسلان (إنسانية) في مواجهة السياسة الغربية المناهضة للإسلام والمسلمين ، وبهذا وصف شكيب نفسه سياسته فقال : «إن سياستي في الحقيقة مبنية على الإنسانية لاغير ، وعندي أن الإنسانية هي رأس السياسة ، وأن الذي يأخذ بسياستها لايعثر .. هذا هو مشربي الحقيقي ، ويراني الناس مؤيداً للدين لأني أرى الدين ركناً للإنسانية ، ولست أعتقد مجئ الأديان إلا خدمة للإنسانية وتقديساً لها ، وإلا فإن الله غني عن العالمين» [١].

والدين الإسلامي في رأي شكيب أرسلان مرتبط بالسياسة فهو عامل توحيد للمسلمين في رد غائلة العدوان والإستعمار يشد أزرهم ويجمع شملهم ويمنحهم قوة أعظم ، يقول الأمير شكيب :

«فأما من جهة المسلمين فإن الجامعة الوحيدة التي كانت تجمع بين الترك والعرب والكرد والأرناؤوط والجركس ، فهي الجامعة الدينية ، ولولاها لكانت هذه السلطنة قد تفككت منذ قرون» [٢]

ويرى شكيب أن الإسلام قادر على الإسهام في نهوض الشعوب الإسلامية علماً

---

١ - أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان ، داعية العروبة والإسلام ، ص ١٥ .

٢ - مختارات من الأمير شكيب أرسلان ، ص٢٩ .

وثقافةً واجتماعاً ، واللحاق بركب العصر ، وهو أمر تحقق له في أيام المسلمين الذهبية، وكانت أسباب الارتقاء عائدة إلى تمسك المسلمين بدينهم وأسباب التردي والضعف تعود إلى محيدهم عن جادة القرآن القويمة .

كما رأى شكيب أن المسلمين يحتاجون في بناء نهضتهم الحضارية الحديثة أن يعودوا إلى تراثهم لاستلهام ذاتهم التاريخية الخاصة التي تميز هويتهم وتبعث الثقة في أنفسهم وتعينهم في سعيهم الجاد نحو الحرية والعدل .

تلك هي الأسس والمبادئ التي بنى عليها شكيب أرسلان فكره الإصلاحي في المجال السياسي ، ولكن لم تكن أفكار شكيب السياسية مجرد طموحات نظرية « يوتوبيا » بل لقد حرص على أن يجعلها معياراً لتعامله مع الواقع السياسي الذي ساهم بجهده وآرائه ومواقفه في معالجة أحداثه .

«لم يكن شكيب أرسلان ، لحظة واحدة ، في هامش ما يجري ويتحول ، كان موقعه الاجتماعي يمنحه قوة واضحة في كل المسؤوليات الرسمية التي تقلدها ، إلا أنه كان أكثر نفوذاً وقوة وهو خارج المركز والمسؤولية الرسمية» (١)

ونماذج حرص الأمير شكيب على ربط منهجه الإصلاحي السياسي بالواقع العملي كثيرة منها إصراره الدائب على ربط الوحدة الإسلامية بمضمون نضالي يقوم على الجهاد ومقاتلة الغزوة الأوروبية ، بل لقد شارك الأمير شكيب بنفسه في مقاتلة الإيطاليين إلى جانب المجاهدين بليبيا ، كما سارع إلى الإصلاح بين ملك السعودية وإمام اليمن حتى يمنع التدخل الأجنبي ، وكان عضوا في الوفد السوري الفلسطيني المطالب بالحرية ورد الحقوق أمام الدول الغربية ، وكان يقول :

«إن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتحد إتحاداً دفاعياً تاماً ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، يستطيع بذلك الذياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل» (٢)

---

١ – د. محمد شفيق شبا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص١٤٣ .

٢ – شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج١ ، ص٣٠٧ .

ونحن لا نهدف من دراستنا تتبع الجانب العملي في سياسة الأمير شكيب أرسلان مع عظيم تقديرنا لجهاده وجهوده ، ولكننا أردنا أن نبحث في فكره النظري السياسي الإصلاحي الساعي إلى إعادة بناء الكيان السياسي للدولة الإسلامية في العصر الحديث على أصول شرعية صحيحة وبيان اجتهادات الأمير شكيب في مواجهة (واقع الأمة) المتمثل في الفراغ السياسي الذي أحدثه إلغاء الخلافة العثمانية ، ومواجهة الهجمة الغربية السياسية والحضارية والفكرية والتي تهدد الأمة الإسلامية بالفناء أو فقدان الهوية .

ولقد تناول البحث (الفكر السياسي عند الأمير شكيب أرسلان) من جانبين :

الجانب الأول : «تصور الأمير شكيب أرسلان للدولة الإسلامية»

ويبحث في مسألتين : المسألة الأولى :

أستقلال النظام الإسلامي (الفرق بين الخلافة والملك)

ويهدف إلى إظهار رؤية شكيب أرسلان لتفرد النظام الإسلامي ، وتفوقه على كل الأنظمة السياسية التي قامت عليها الدول عبر العصور .

والمسألة الثانية :

تبين الأصول والمبادئ العامة التي تميز الدولة الإسلامية في رأي شكيب وقدرتها على تحقيق مصالح الناس ، وبلوغ الغاية المقصودة من الشريعة الإسلامية وهي إقامة (العدل) في الأرض ، وقد تجلى هذا الهدف من خلال إبرازه لمبادئ الإسلام العامة التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية وهي :

١ - الشورى .

٢ - المساواة .

٣ - التسامح أو معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .

أما الجانب الثاني : «الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير

شكيب أرسلان» .

فيبحث تدرج فكر شكيب أرسلان السياسي في تعامله مع الواقع السياسي للأمة الإسلامية ، ومحاولاته الجمع بين (المثل الأعلى) المتمثل في إقامة الخلافة وبين واقع المسلمين وصراعهم من أجل الحفاظ على كيانهم السياسي في مواجهة حملات التغريب والتفتيت والشعوبية.

ولقد تدرج فكر شكيب أرسلان وموقفه السياسي على مرحلتين :

المرحلة الأولى : والتي امتدت إلى نهاية الحرب الأولى أو بعدها بقليل ، وتميز مضمون فكره خلالها بالتمسك بالجامعة الإسلامية وكانت تمثلها في هذه المرحلة (الخلافة العثمانية) حقيقة قائمة . .

والمرحلة الثانية : وهي مرحلة مابعد الحرب الأولى ، منذ مطلع العشرينات وإلى أيامه الأخيرة ، وتميز فكره خلالها في محاولات ملء الفراغ السياسي الذي أحدثه إلغاء الخلافة العثمانية ، وما ترتب عليه من فتح الباب على مصراعيه للإتجاهات الفكرية والمذهبية والعرقية من كل شكل وعلى كل لون .

ولقد عرضنا مراحل هذا التدرج من خلال دعوته إلى (الجامعة الإسلامية) وفكرة (الرابطة الشرقية) ثم إلى(الجامعة العربية) ، كما بينا منهجه لبعث الأمة الإسلامية بعثاً جديداً من خلال عرض آرائه في (التربية) ، وبعث (المدنية الإسلامية) في مواجهة (الحضارة الغربية) .

تصور الأمير شكيب أرسلان للدولة الإسلامية :

- استقلال النظام الإسلامي (الفرق بين الخلافة والملك) .
- الأصول والمبادئ العامة التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية :

١ - الشورى .

٢ - المساواة .

٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .

إستقلال النظام الإسلامي
(الفرق بين الخلافة والملك)

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الخلافة من بعده ثلاثون سنة فقال : " الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك [١] فهذا نص عن رسول الله صلي الله عليه وسلم يفرق فيه بين مصطلح الخلافة التى هى : " نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا ، فصاحب الشرع متصرف فى الأمرين : أما فى الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية التى مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها ، وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم فى العمران البشرى" [٢] وبين الملك بما يحاط به من مزايا الترف وخصائص الأبهة .

ولقد اجتهد الأمير فى إظهار الفروق بين معنى كل من الإصطلاحين فقال : إن الإسلام فى أصله يفترق عن غيره من الملل بأن الخلافة فيه وإن أشبهت الملك من جهة الأمر والنهى – شرط مشاورة أهل الحل والعقد– فهى لاتشبه الملك فى مزايا الترف وخصائص الأبهة التى يجيزها ملوك الأمم الأخرى [٣] .

وعلى هذا فليس كل من انتحل لقب الخلافة خليفة فقد أطلق لقب" **خليفة** " على **ملوك** عدول وآخرين مستبدين وعلى سلاطين منهم الصالح ومنهم الطالح ومنهم القوى ومنهم الضعيف وليسوا بخلفاء . ولذلك ذهب جماعة من أئمة السلف منهم **أحمد بن حنبل** رحمه الله إلى كراهة إطلاق اسم الخليفة على من بعد الحسن بن على رضى الله عنهما ، واحتجوا بما رواه أبوداود والترمذى عن حديث سفينة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك " [٤] .

ويروى الطبرى خبرا عن عبد الله بن مسعدة يبين ان معاوية بن أبى سفيان قد أدرك الفرق بين الخلافة والملك ، قال :

---

[١] رواه الامام أحمد فى مسنده ، وصححه ابن حبان

[٢] ابن خلدون جـ ١ ص ٣٨٦

[٣] تعليقات الأمير على ابن خلدون ملحق الجزء الأول ص ٢٤

[٤] القلقشندى ، مآثر الأناقة فى معالم الخلافة جـ ١ ص ١٢

" انتقل معاوية من بعض كور الشـــام إلي بعض عملـه فنزل منزلاً بالشام فبسط لـه على ظهر اجار (سطح) مشرف على الطريق ، فأذن لى فقعدت معه فمرت القطرات والرحائل والجوارى والخيول فقال : "يابن مسعدة رحم الله أبا بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه وأما نحن فتمرغنا فيها . ثم كأنه ندم فقال : والله إنه لملك ساقه الله إلينا" [١].

فالخلافة إذن نمط فريد من أنماط أنظمة الحكم تختلف عن الملك أو السلطنة ، أو كما يصفها الأمير شكيب : " الخلافة فى الإسلام ليست بملك ولا سلطنة ، وإنما هى رعاية عامة للأمة لإقامتها على الشرع الحنيف ، وردع القوى عن الضعيف فى الداخل ، وصيانة الإسلام ودفع المعتدى عليه من الخارج . وهى لاتنعقد إلا بإرادة الأمة . والسلطان الذى يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمة لاسلطان له عليها إلا منها" [٢].

والأمير يدعو من أراد أن يتعرف على النظام الحقيقى للخلافة فى الشرع الإسلامى أن يتأمل ماكان عليه الخلفاء الراشدون الأربعة ، فهو أشد صور الحكم الإسلامى إنطباقاً على الشرع [٣] ، وسيرة الخلفاء الراشدين هى المرآة الحقيقية لروح الإسلام [٤] .

والأمير بذلك ينطق بما جاء فى الحديث الشريف ، وعندما يقول " إن الخلافة لم تستتم شروطها الصحيحة إلا فى الخلفاء الراشدين وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، إلا خشية الفتنة فى الداخل والإعتداء على الحوزة من الخارج " [٥] .

وإذا أراد الإنسان أن يعرف ثمار شجرة الإسلام فعليه أن يدرس سيرة الخلفاء الراشدين التى تستخلص منها الأحكام الشرعية التى تميز نظام الخلافة والمبادىء التى يقوم عليها فتميزه كنظام مستقل سابق لأنظمة العصر.

---

[١] الطبرى ، جـ ٥ /٣٣٤

[٢] حاضر العالم ، جـ١ ص٢٤٠

[٣] نفسه جـ١ ص٢٤٠

[٤] نفسه جـ١ ص٢٤١

[٥] المرجع السابق جـ١ ص٢٩٠

ومن تلك المبادىء التى يقوم عليها نظام الخلافة فى الإسلام مبدأ كون السلطة القومية من الأمة وهو مبدأ سبق به الإسلام أنظمة العصر، وليس كما يزعم الكثير من الأوربيين ومن تابعهم من المسلمين الجاهلين بتاريخ الشرائع : إن هذا المذهب من الأوضاع الغربية الأوربية ، فقد عدة الإسلام فى هذا الموضوع واضحة ، وحكم الخلفاء الراشدين " كان أمرا شعبياً محضاً وديمقراطياً بحتاً وأبعد شيء عن السلطان المطلق ، والقرآن صريح فى قوله تعالى : " وشاورهم فى الأمر" وقوله " وأمرهم شورى بينهم " [١] .

والمبدأ الثانى أن الخليفة أو أمير المؤمنين لم يكن شخصاً مقدساً غير مسئول كما هو عند الاوروبيين - فى البابا - ولم تكن له مزية شخصية على سائر الأمة ، وكان إذا أخطأ يقيد من نفسه [٢] . ولم يخطر ببال أحد من الخلفاء الراشدين أن يورث أولاده الخلافة - كما يفعل الملوك - بل كانوا يلقونها عن ظهورهم إلقاء من يريد الخلاص من تبعتها [٣] .

أما المبدأ الثالث - وهو بديهى - أن نظام الحكم كان يقوم على ما أنزل الله سبحانه حسب منهاج النبوة ، لافرق بين الخليفة وأهل الحل والعقد وسائر أفراد الرعية فى وجوب الإمتثال لشرع الله ، وهو معيار الإستقامة التى تحدث عنها أبو بكر الصديق رضى الله عنه لما بويع للخلافة فقال : إنما أنا بشر ولست بخير منكم فراعونى فإن رأيتمونى استقمت فاتبعونى وإن رأيتمونى زغت فقومونى " [٤] .

هذه هى المبادىء الأساسية التي يقوم عليها نظام الخلافة ، ولكن ما الفرق بين الخليفة والملك ؟ ولربما التبس الأمر على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خشية الوقوع فى الملك والإنحراف عن الخلافة كما نقل الأميرعن الطبقات الكبرى لإبن سعد : أن عمر سأل سلمان قال له : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر" ثم قال أخبرنا محمد بن عمر قال عن سفيان بن أبى العوجاء قال : قال عمر بن الخطاب : والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك ؟ فإن كنت ملكاً فهذا أمرعظيم ، قال قائل : يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً ، قال ما هو: قال الخليفة لايأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا فى حق فأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا . فسكت عمر" [٥] .

---

[١] ، [٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] حاضر العالم جـ١ مج١ ص٢٤١.

فمن طبائـــع الملك التى تفرق بينه وبين الخليفة حرصـــه على الدنيا وترك العـــدل ، والاستبداد ، على أن عمر رضى الله عنه ، كان يعلم بعض طبائع الملك غير الذى ذكر صاحباه . وذلك أنه لما قدم الشام ولقى معاوية بن أبى سفيان واليـه عليها ، فى أبهة الملك وزيه استنكر هذا الترف وقال : "اكسروية يا معاوية ! " فقال : "ياأمير المؤمنين إنا فى ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباهاته بزينة الحرب والجهاد حاجة " فسكت عمر [١] . وكان عمر بن الخطاب إذا استعمل عاملاً كتب عليه كتاباً واشهد عليه رهطاً من الأنصار أن لايركب برذونا ولايأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولايغلق بابه دون حاجات المسلمين ، ثم يقول اللهم اشهد [٢] .

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يكن ليشق على عماله بالتضييق عليهم ، ولكنه أراد أن يضبطهم فلا يغدون طبقة متميزة فى الأمة يتمتعون بمراكب خاصة وملابس خاصة يحتجبون فى دواوين الدولة عن الناس ، وهذا هو فهم عمر للنظام الخلافى الذى كان يأخذ به نفسه ، فليست الخلافة مجرد نظام سياسى إدارى أو منهج حكم بل إتجاه سلوكى وخلقى بل إجتماعى أيضاً . وعليه فإن من خصائص الخلافة الراشدة إلتزام المجتمع الإسلامى بمجموعة الأخلاق الإجتماعية التى حددتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسلوك الخلفاء الراشدين والصحابة الأولين [٣] . والأمير شكيب يرى فى سيرة عمر مثالاً بارزاً يأخذ منه القارى صورة حقيقية عن كيفية الإسلام فى زمان الخلفاء الراشدين وعن روح الإمارة التى أمرهم بها الشارع صلى الله عليه وسلم ، وفى سيرته رضى الله عنه تبرئة للشريعة الإسلامية مما أصاب المسلمين بعد عهد الراشدين من فرقة وضعف ، لأن حقيقة الإسلام كما تظهر من سيرة الراشدين كانت معيار الفلاح والفشل للمسلمين ، " فكانوا كلما تمشوا عليها أفلحوا وسادوا وكلما إنحرفوا عنها وهنوا وفشلوا (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)" [٤] . وفى تعليقات الأمير على (حاضر العالم الإسلامى) يعلق على قول (لوثروب ستودارد) الامريكى : "إن العرب ما إنفكوا ينظرون الى الخلفاء الترك شزراً ويعدونهم

---

[١] مقدمة ابن خلدون ط ٣ ص ٣٦٠

[٢] ابن الجوزى ، سيرة عمر ص ٨٥

[٣] الخلافة بين التنظير والتطبيق ، محمود المرداوى ص ٢٨

[٤] تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامى ، جـ١ ص ٢٥٨

المغتصبين للخلافة إغتصاباً" [١] .

يقول شكيب : "إن الخلافة لم تستتم شروطها الصحيحة إلا فى الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضوضاً قد يولد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم" [٢] .

وبناءً على هذا فقد فرق الأمير شكيب بين أنظمة الحكم الثلاثة الملكى الإستبدادى أو الطبيعى كما يسميه ابن خلدون ، والملكى السياسى والخلافة التى وازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين ، وهذا الفهم نجده عند ابن خلدون ويبرز فى قوله : "لقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة ، وأن الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ، والسياسى هو حمل الكافه على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المدار ، والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى إعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به" [٣] . وهذا النظام لم يتحقق إلا فى عهد الخلفاء الأربعة الذين خلفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد ما ذهب إليه الأمير ما سبق واشرنا إليه عن الثلاثين سنه التى أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنها سنى الخلافة فى قوله "الخلافة ثلاثون سنه ثم يكون بعد ذلك الملك" [٤] وقول العلماء : لم يكن فى الثلاثين سنة بعده صلى الله عليه وسلم إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن [٥] .

ويقال الأمير شكيب بين نظام الخلافة وبين النظام الدستورى الذى تحتكم فيه العامة الى قوانين سياسية فينقاد الجميع الى أحكامهما فيقول : "إن الخليفة ليس معصوماً عند اهل السنة ، و أنه لايمتاز عن غيره من الرعية ، وأنه مقيد بالشورى ، وأنه ليس له ان يستبد بالأمر" ثم يقول الأمير : "ولعل قائلاً يقول : إن ملوك العصر الحاضر أيضا مقيدون بالدساتير التى وضعتها الأمم التى يلون امرها وليس لهم أن يستبدوا فى شئ ! وهذا لاجدال

---

[١] ستودارد ، حاضر العالم الإسلامى ، جـ١ ص ٢٩٠

[٢] شكيب أرسلان ، تعليقاته على حاضر العالم الإسلامى ، هامش ص ٢٩٠ جـ١

[٣] مقدمة ابن خلدون جـ١ ص ٣٣٧

[٤] رواه أحمد واخرجه بن حبان

[٥] جلال الدين السيوطى تاريخ الخلفاء ، ط ١ ص ٩٠

فيه وأن الأمم الحديثة قيدت الملوك ولكن يبقى بينهم وبين الخلفاء الراشدين الفرق العظيم بأن ملوك الأعصر الأخيرة هم غير مسؤولين فى أحوالهم الشخصية ، وأن الخلفاء فى الإسلام هم مسؤولون كسائر الرعية .

ويبقى فرق آخر بأن الخلفاء كانوا من السذاجة والتقشف فى معيشتهم ما لم يكن احد قبلهم ولابعدهم ، ولم يكونوا يأخذون من بيت المال إلا ما يسد عوزهم الضرورى والحال أن الملوك ورؤساء الجمهوريات فى الأعصر الأخيرة يتمتعون بالجرايات الوافرة ويعيشون فى ترف عظيم لاينازع فيه أحد" [١] .

ويقر الأمير بأن الخلفاء الراشدين لم يقع إنتخابهم الى أجل مسمى نظير رؤساء الجمهوريات ، ولكنه يؤكد أنه لا جدال فى أن الخليفة أو أمير المؤمنين لم يكن شخصاً مقدساً غير مسئول كما هو عند الأوربيين ولم تكن له مزية شخصية على سائر الأمة [٢] .

ويرى الأمير أن من أكبر الفروق التى تميز الخلافة عن الملك أن الخلفاء الراشدين لم يخطر ببال أحدهم أن يورث أولاده الخلافة بل كانوا يلقونها عن ظهورهم إلقاء من يريد الخلاص من تبعاتها .

وملوك هذا العصر ينتقل الملك منهم إلى أولادهم فأحفادهم ، بينما كان الخلفاء الراشدون يعهدون الى ذوى الكفاية من الأمة دون أولادهم ." فروح الاسلام الحقيقى هى مراعاة الكفاية والأهلية دون أى اعتبار أخر " [٣] .

وبعد .. فإن دارس الشرع الإسلامى يحق له أن يتساءل كيف انقلبت الخلافة ملكا فى الإسلام ؟ وكيف رضيت الأمة أن تنقاد لنظام سياسى مخالف لما كان عليه سلفها الصالح بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ؟

ويجيب الأمير شكيب فيقول : " ما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، إلاخشية الفتنة فى الداخل والإعتداء على الحوزة من الخارج " [٤] .

---

[١] تعليقات الأمير على مقدمة ابن خلدون جـ١ ص ٢٦

[٢] تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامى جـ١ ص ٢٤١

[٣] تعليقات الأمير على ابن خلدون جـ١ ص٢٦

[٤] تعليقات الأمير على حاضر العالم الاسلامى جـ١ ص٢٩٠

والحق أن خوف الفتنة ، وتغير أحوال المسلمين عن أحوال أسلافهم إبان عهد النبوة ، سببان أساسيان فى إنقلاب الخلافة إلى الملك ثم إستقرار الملك ورضا المسلمين به .

يقول ابن خلدون فى بيان ذلك ما نصه " فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى ملك وأن الأمر كان فى أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يؤثرونه على كل أمور دنياهم وإن أفضت إلىهلاكهم وحدهم دون الكافة ، فهذا عثمان لما حصر فى الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة للفرقة وحفظاً للألفة التى بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه". وهذا يبين أن الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه آثر أن يصل إليه الثائرون فيقتلوه على أن يقوم رهط من أنصاره بقتالهم فتقع الفتنة بين عامة المسلمين دون أن يجتهد فى دفعها عنهم وهو راعيهم ومسئول أمام الله عما استرعاه [١] .

ويروى ابن خلدون رواية أخرى عن على رضى الله عنه تبين تمسكه بمنهج الخلافة وتركه لأساليب الملك.وإن كان بها مصلحته يقول ابن خلدون : وهذا على أشار عليه المغيرة لأول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته ، وتتفق الكلمة ، وله بعد ذلك ماشاء من أمره ، وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فرارا من الغش الذى ينافيه الاسلام . وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال : لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت ثم عدت إلى نظرى فعلمت أنه ليس من الحق والنصيحة ، وأن الحق فيما رأيته أنت ، فقال على : لا والله ، بل أعلم أنك نصحتنى بالأمس ، وغششتنى اليوم . ولكن منعنى مما أشرت به ذائد الحق . وهكذا كانت حالهم فى إصلاح دينهم بفساد دنياهم " [٢] . فعلى كرم الله وجهه أبى نصيحة المغيرة لأن العمل بها ، وإن كان فى مصلحته ، من سمات الملك وليس من سمات الخلافة التى اجتهد أن يتمسك بها وينهج نهج أسلافه فى التمسك بنظام خلافة النبوة .

ولكن هل كان العصر ملائماً لاستمرار الخلافة على نهج النبوة ؟. " لقد كان على رضى الله عنه يدرك إختلاف المحيط وأنه جاء فى عصر أهله أهل دنيا وملك ، فسأله سائل ؟ مابال الناس اختلفوا عليك وقد أجمعوا على أبى بكر وعمر ؟ فقال : لقد كان أبو بكر

---

[١] ، [٢] تاريخ ابن خلدون (المقدمة) جـ ١ ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩

وعمر خلفاء على أمثالي وكنت خليفة على مثلك " [١] .

وعلى قاعدة **كما تكونوا يول عليكم** " صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ، ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيفاً . وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وإبنه عبد الملك ، والصدد الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده . ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا إسمها ، وصار الأمر ملكاً بحتاً " [٢] .

ولقد ذهب العقاد إلى القول بأن " الصراع بين **علي** و**معاوية** رضي الله عنهما لم يكن صراعاً بين رجلين وإنما كان صراعاً بين إتجاهين أو نظامين ، النظام الخلافي والنظام الملكي . **فالأول** : ذهب أهله وانقضى زمانه ، **والثاني** : استمحله الناس واستحسنوه فهو أيسر لأهوائهم وأنعم لدنياهم " [٣] .

قال ابن خلدون : " ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم منها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم ببغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لإستشعار حق كما يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد وإنما إختلف جهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه " [٤] .

وبعد حسم الصراع وانتقال أمر العرب والمسلمين لبني أمية ، اقتضى الأمر وفق موازين القوة الإجتماعية وخوف الفرقة أو ما يسميه ابن خلدون (**العصبية**) أن تتحول الخلافة إلى ملكاً وراثياً . قال ابن خلدون : " ثم اقتضت طبيعة الملك الإنفراد بالمجد ، واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ، ومن لم يكن على طريقة معاوية في إقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوصبوا عليه واستماتوا دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الإنفراد بالأمر لوقع في إفتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس ورائه كبير مخالفة " [٥] .

---

[١] الخلافة بين التنظيم والتطبيق ، محمود المرداوي ، ص ٣١ - ٣٢

[٢] مقدمة تاريخ ابن خلدون جـ ١ ، ص ٣٦٩

[٣] عباس العقاد ، عبقرية الإمام علي ، ص ٤٣ عن الخلافة بين التنظيم والتطبيق ص ٣٢

[٤] ، [٥] مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٦٤ ، جـ ١

ويزعم ابن خلدون أن الذي دعا معاوية إلى إيثار إبنه **يزيد** بالعهد دون سواه ، إنما هو مراعاة المصلحة العامة في إجتماع الناس وإتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية ... فعدل معاوية عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الإتفاق وإجتماع الأهواء والذي شأنه أهم عند الشارع .

وحرصاً على جمع كلمة المسلمين والخوف من إفتراق الكلمة إمتنعت عودة الخلافة الصحيحة فيما بعد ، فقد كان **عمر بن عبد العزيز** رضي الله عنه يقول إذا رأى **القاسم بن محمد بن أبي بكر** : " لو كان لي من الأمر شيء لوليته الخلافة " . ولو أراد أن يعهد إليه لفعل ، ولكنه كان يخشى من بني أمية ، أهل الحل والعقد ، فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم ، لئلا تقع الفتنة [١] .

---

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ص ٣٢٥

الأصول والمبادئ العامة التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية

١ - الشورى .

٢ - المساواة .

٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .

١ ـ الشورى

يرى الأمير شكيب أن السلطان الذى يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمة لاسلطان له عليها إلا منها [١] ، لذلك فإن أمر الشورى فرض أوجبه الله [٢] فى كتابه قال تعالى : " وشاورهم فى الأمر " . وقال : " وأمرهم شورى بينهم ". وكان النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون يعملون كل شيء عام بالشورى . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى احدى خطبه : " ولكن الابرام بعد التشاور ، والصفقة بعد التناظر " [٣] .

وينقل الأمير عن ابن قيم الجوزيه فى **(أعلام الموقعين)** قوله : كانت النازلة إذا نزلت بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليس فيها عنده نص عن الله ولاعن رسوله جمع لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جعلها شورى بينهم [٤] وعن شريح القاضى قال : قال لي عمر بن الخطاب : " اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن لم تعلم كل اقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين فإن لم تعلم كل ماقضيت به ائمة المهتدين فاجتهد رأيك واستشر أهل العلم والصلاح ". وكتب عمر إلى شريح : " إذا حضرك أمر لابد منه فانظر مافى كتاب الله فاقض به فإن لم يكن ففيما قضى به رسول الله فإن لم يكن ففيما قضى به الصالحون وأئمة العدل فإن لم يكن فأنت بالخيار . فإن شئت أن تجتهد رأيك فاجتهد رأيك وإن شئت أن تؤامرنى ولا أرى مؤامرتك إياى إلا خيراً لك " [٥] .

ومن كتاب لعمر إلى أبى موسى الأشعرى : "ثم الفهم الفهم فيما أدلى إليك مما ورد عليك مما ليس فى قرآن ولاسنة ثم قايس الأمور واعرف الأمثال ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق " [٧] .

والأمير شكيب يكثر من الاستشهاد بالأخبار والآثار الواردة فى أمر الشورى عن الخلفاء الراشدين لأنه يرى أن من أراد أن يعلم قاعدة الإسلام فى هذا الموضوع فعليه أن يتأمل ماكان عليه الخلفاء الراشدون الأربعة ،"فهو أشد صور الحكم الإسلامى إنطباقاً على الشرع " [٨] . "فإذا أراد الإنسان أن يعرف ثمار شجرة الإسلام فليتأمل فى سيرة الخلفاء الراشدين فإنها المرآة الحقيقية لروح الإسلام " [٩] .

من [١] الى [٩] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ ١ ص٢٤٠ ، ٧٠ ، ٣٤٩ ، ٢٤١

ومن تأمل النصوص التى يستدل بها الأمير على وجوب الشورى فى الإسلام نجد أن مهام الشورى تقتصر على جانب واحد من جوانب الفقه والشريعة هو الاجتهاد والرأى ولامجال لها مطلقا فيما ورد فيه نص ، وقديما رسخ الأصوليون هذه القاعدة فقالوا : "لا اجتهاد فى مورد النص " [١] . وليس أدل على هذا مما ذكره الأمير من الحديث " لما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل واليا على اليمن قال لمعاذ : كيف تصنع أن عرض لك قضاء ؟ قال أقضى بما فى كتاب الله : قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال فبسنة رسول الله . قال : فإن لم يكن بسنة رسول الله ؟ قال اجتهد رأيى ولاآلو . ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله هذا وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله " [٢] ، فالشريعة قد جعلت باب الاجتهاد مفتوحا لكل من كان حقيقاً به ، وجعلت المصلحة والضرورة وسد الذريعة من الأصول الكلية التى يرجع إليها [٣] ، وأوجبت على الإمام المشاورة فى كل مالا نص فيه عن الله ورسوله ، ولا إجماعا صحيحا يحتج به ، أوماقبه نص اجتهادى غير قطعى ، ولا سيما أمور السياسة والحرب المبنية على أساس المصلحة العامة ، وكذا طرق تنفيذ النصوص فى هذه الأمور إذ هى تختلف باختلاف المكان والزمان فهو ليس حاكما مطلقا كما يتوهم الكثيرون بل مقيد بأدلة الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين العامه وبالمشاورة [٤] . والأمير يستشهد بقول الله تعالى : " وشاورهم فى الأمر " وقوله فى وصف المؤمنين : " وأمرهم شورى بينهم "، ولو لم يرد فى أمر الشورى الاهاتين الآيتين لكفى بهما دليلا على وجوب الشورى فى الإسلام ، فالآيه الأولى أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهى جزء من قوله تعالى : " فاعف عنهم واستغفرلهم وشاورهم فى الأمر " [٥] . وقد ذهب بعض السلف الى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان غنيا عن المشاورة فلولا إرادة جعلها قاعدة شرعية لما أمر الله بها " روى عن الحسن البصرى فى تفسيره قوله تعالى (وشاورهم فى الأمر) أنه قال :

---

[١] الخلافة بين التنظيم والتطبيق محمود الموارى، ص ٢٢٢

[٢] ، [٣] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامى ، جـ ٢ ص ٣٥٠

[٤] رشيد رضا ، الخلافة ، ص ٣٨

[٥] آل عمران ، آية ١٥٩ " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين "

" قد علم الله أنه مابه إليهم من حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده " [١] . فالمشاورة في حقه صلى الله عليه وسلم مندوبة لتطييب القلوب ، ومنهم من ذهب إلى وجوبها لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مستغنياً عن غيره من الناس إلا فيما ينزل عليه فيه الوحي وقال " أنتم أعلم بأمور دنياكم " [٢] (رواه مسلم) . " ولذلك كانوا إذا راجعوه في أمر أمر به ورأوا المصلحة في غيره سألوه أقاله أو فعله بوحي من الله أم من رأيه ؟ فإذا كان من رأيه ذكروا رأيهم وقد يعمل به ويرجحه على رأيه كما فعل في يوم بدر فقد جاء صلى الله عليه وسلم أدنى ماء فنزل عنده فقال الحباب بن المنذر : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ ، قال " بل هو الرأي والحرب والمكيدة " فقال يا رسول الله ليس هذا بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه .. إلخ ، فقال صلى الله عليه وسلم " لقد أشرت بالرأي " وعمل برأيه [٣] . وسواء أكان الأمر في حقه صلى الله عليه وسلم على سبيل الندب أو الوجوب ، إلا أنه في حق المؤمنين واجباً بالإجماع لأن الله سبحانه وتعالى وصف به المؤمنين فقال : " وأمرهم شورى بينهم " فذكر سبحانه من صفات المؤمنين التشاور فلا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها [٤] . والآثار الواردة عن الراشدين في المشاورة كثيرة منها ما ذكره الأمير شكيب عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ورواه الدرامي والبيهقي عن ميمون بن مهران أن أبا بكر كان يسأل عامة المسلمين عما لا يجد فيه نصاً من الكتاب ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، هل يعلمون عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه شيئاً فربما قام إليه الرهط فقالوا نعم قضي فيه بكذا فيأخذ به ويحمد الله تعالى (قال) وإن أعياه ذلك دعا رءوس المسلمين وعلماءهم فاستشارهم فإذا إجتمع رأيهم على أمر قضي به ، وإن عمر بن الخطاب كان يفعل ذلك ، وزاد أنه كان بعد النظر في الكتاب والسنة ينظر فيما قضى به أبو بكر أيضاً لأنه كان لا يقضي إلا بنص أو مشاورة [٥] .

---

[١] رشيد رضا ، الخلافة ، ص ٣٨

[٢] المرجع السابق ، ص ٣٨

[٣] المرجع السابق ، ص ٣٨

[٤] ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ص ١١٨ مج ٤

[٥] رشيد رضا ، الخلافة ، ص ٤٠

ومنه ما رواه علي كرم الله وجهه قال : قلت يارسول الله إن نزل بنا أمر ليس فيه بيان أمر ولا نهي فما تأمرنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم " شاوروا فيه الفقهاء والعابدين ولا تمضوا فيه رأي خاصة " [١] .

ومن تأمل هذه الآثار نلحظ الفرق بين سؤال عامة المسلمين عن الرواية وإختصاص الرؤساء والعلماء بالمشاورة ، ذلك بأنهم هم جماعة أولي الأمر وأهل الحل والعقد الذين أمر الكتاب بطاعتهم بعد طاعة الله ورسوله وقال في إحالة الأمر إليهم (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) . والحق أن الدولة الإسلامية قامت مع نظام صحيح أو قام النظام معها ، والأصل في الشورى أنها دعامة من دعائم الدولة وواجب من واجبات الحكومة الإسلامية كما يتجلى ذلك في نظام الحكم على عهد الراشدين ولا عبرة بالمنحرفين عن هذا الأصل ؛ وهذا ما يؤكده الأمير شكيب بقوله : " إن جميع الحكومات الإسلامية هي شورية ديمقراطية فطرة وخلقة والإستبداد فيها عارض ومن جملتها الدولة العثمانية أو التركية الحاضرة " [٢] .

٢- المساواة

إن الدين لايكون إلهياً سماوياً مرشحاً لأن تأخذ به الأمم المختلفة ، أحمرها وأسودها وادناها وأبعدها ، الا إذا كان مؤسسا على هذه القاعدة المقدسة ، قاعدة المساواة [٣] .

وشريعة الإسلام حرصت على قيام الدولة الإسلامية بتحقيق العدالة بأوسع معانيها وفى شتى مجالاتها السياسية والإدارية والقضائية والاجتماعية والدولية ويتضمن ذلك حماية الحقوق والحريات العامة والمساواة فى صورها المتعهدة ، كما تقوم ممارسة الحكم على الشورى . ويرتبط تحقيق المساواة فى الإسلام بمفهوم (الأمة) ، فالأمة فى الإسلام تقوم على أساس عقيدى فكرى لا على اساس عرقى ، كما يقوم مفهوم (الدولة) على نفس الأساس ، لاعلى أساس أرضى جغرافى أو تاريخى "كنتم خير أمه أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله - آل عمران ١١٠"

---

[١] رواه الطبراني في معجمه الوسيط وصححه السيوطي في مفتاح الجنة (محمد عوامة ، أثر الحديث الشريف في إختلاف الأئمة ، ص ١٠٢)

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ ٤ ص ٧٠

[٣] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ ٤ ص ١٥٨

"وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا – البقرة ١٤٣". وقد ورد ما يشير بإقامة كيان سياسى نظامى لأمة الإسلام فى القرآن والسنة ، عبر عن المسئول عنه بـ (الإمام) و(ولى الأمر) [١] .

ومن هنا قامت أمة الإسلام ودولته على أساس انسانى عالمى ، يقول الأمير شكيب : "وترى صورة الإسلام كلها فى هذه الآية "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" يقول تعالى: إنه خلق البشر كلهم من أب وأم وماجعلهم شعوبا وقبائل لتمييز بعضهم على بعض ، كلا ، بل ليعرف كل من أى قبيل هو ، أما المزية فهى للتقوى فقط . وبهذه الآيه انتشر الإسلام ، وفتح العرب تحت ظل رايته الديموقراطية الحقيقية نصف المعمور ، ودخلت الأمم فى الإسلام ، ولا تزال تدخل فيه إلى يومنا هذا" [٢] .

ويبين الأمير رفض الإسلام لأمته ودولته أن ينغلقا على عصبية ضيقة فيستشهد بالأحاديث النبوية التى جاءت مؤيدة للآية الكريمة (فمنها "ليس منا من دعا إلى عصبية") ومنها: "ليس لعربى فضل على عجمى ولا لعجمى فضل على عربى إلا بالتقوى: ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: لفاطمة ابنته : "اعملى يا فاطمة فلن أغنى عنك شيئا يوم القيامة". أو كما قال . وهذا فى معنى قوله تعالى : "لا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون" [٣] ثم يقول الأمير : " وهناك حديث شريف أطلعنا على أسانيده حضرة الامام الكبير بقية السلف الصالح الشيخ بدر الدين الحسينى المغربى نزيل دمشق وهو قوله صلى الله عليه وسلم: " ألا إن بعض أهل بيتى يرون أنفسهم أولى الناس بى وليس الأمر كذلك إنما أوليائى المتقون من كانوا وحيث كانوا . ألا إنى لا أحل لأهل بيتى أن يفسدوا ما أصلحت" أو كما قال [٤].

والأمير يرى أن الإسلام يفتح الباب أمام أى مسلم ليستعرب ، فمن تعلم لغة القرآن فهو عربى ، فإنما العربية لسان ، وليست عرقا ودما ومن تعلم القرآن فقد درب على اللسان العربى المبين ، بل يستطيع كل مسلم أن يصل بتقواه إلى الانتساب الى أكرم البيوت العربية ، والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "سلمان منا آل البيت" وذلك أنه عد سلمان الفارسى نظرا لتقواه من آل البيت النبوى أكرم البيوت [٥] .

---

[١] د. محمد فتحى عثمان ، من اصول الفكر السياسى الاسلامى ص ٦٢

[٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] شكيب أرسلان – حاضر العالم جـ ٤ ص ١٥٧

والأمير لاينفى المزية التاريخية للعرب فى عصر الرسالة النبوية ، "فالشريعة الاسلامية تعرف للعرب أمة الرسول صلى الله عليه وسلم خصوصيات وفضائل ولكن هذا لايخرجها قيد شعرة عن قاعدة التسوية العامة بين جميع الأمم" [١] .

فالعرب هم الذين نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، وهم الذين حفظوا رسالة الإسلام فيما بينهم وحملوها الى العالمين وجاهدوا فى سبيلها ، وتمثلوا هديها فى سلوكهم وأخلاقهم ، وحفظوا كتابها وسنة رسولها ، وأنفقوا مما رزقهم الله من عقل وقوة بدن وجهد وعزيمة ومال فى نصرة هذا الدين ، وقد كان الإسلام للعرب شرف الدهر وعز الأبد "لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ، أفلا تعقلون – الأنبياء /١٠" والمفروض أن يكون العرب فى كل عصر أقدر على فهم القرآن والسنة إذ يتكلمون لغتهما ومن ثم يكونون أقدر على ابلاغ الرسالة وأداء الأمانة ، وهى مسئولية عظمى وشرف كبير للعرب إذا قدروا ذلك حق قدره "وانه لذكر لك ، ولقومك وسوف تسألون – الزخرف ٤٤".

وعلى هذا فالأمير شكيب لايرى فى الآيات والأحاديث والآثار التى أوردها "ما يتصادم مع شىء من الأحاديث الصحاح الواردة فى فضل العرب ، ووجوب حب العرب ، وكون كلام الله القديم جاء باللسان العربى المبين" [٢].

غير أن الأمير يعود فيقرر ورود أحاديث أخرى فى فضل غير العرب مثل "لو علق العلم بالثريا لنالته رجال من فارس" [٣].

وعلى أساس قاعدة المساواة المقدسة ظهر التضامن الإسلامى قوياً راسخاً ، وهو الذى حار فى أمر قوته نطس الأطباء الاجتماعيين ، ودهش من استحكام عراه جهابذة المؤرخين الأوربيين ، وليس هذا الا نتيجة قوله تعالى : " إنما المؤمنون إخوة " [٤] .

ويرتبط بالبحث فى المساواة فى الشريعة الإسلامية المؤسسة على إلتزام دولة الإسلام بتحقيق العدالة فى داخل المجتمع الاسلامى أو الدولة الاسلامية بشمول هذه العدالة لتعامل الحكومة الاسلامية مع غير المسلمين فى داخل دولة الاسلام ، وفى العالم كله "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين – الممتحنة /٨"

---

[١] شكيب أرسلان – حاضر العالم جـ ٤ ص ١٥٧

[٢] ، [٣] ، [٤] شكيب أرسلان – حاضر العالم جـ ٤ ص ١٥٨

٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام :

وهذه صفحة جديدة من صفحات (العدالة) في الإسلام ، فعدالة الإسلام الشاملة تحكم تعاملها مع غير المسلمين في داخل الدولة الإسلامية ، وفي العالم كله ، ولقد أفتى بعض العلماء المسلمين بأن الكافر العادل أفضل من المسلم الجائر ، لأن الأول لنا عدله وعليه كفره ، والثاني له إسلامه وعلينا جوره ، وقالوا : إن الله يقيم الدولة بالعدل ولو على كفر ولا يقيمها بالظلم ولو على إسلام [١].

ولقد قرر (شكيب أرسلان) أن الديانة الإسلامية لم تأمر بسوء المعاملة من المسلم لغير المسلم ، وإذا كان بعض المنتسبين إلى الإسلام قد فعل هذا فليس فعله حجة على الإسلام ، بل هو تعصب قبيح غير مندوب ولا مستحب ، والشريعة لم تأمر بشيء من هذا [٢].

ومعنى قوله تعالى : «وليجدوا فيكم غلظة» [٣] هو أنه يجب قتال المشركين الأعداء بشدة ، ويجب الإغلاظ عليهم في الحرب ، وليس معناه احتقار غير المسلمين في المعاملات الشخصية ، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام لعدي بن حاتم وهو نصراني وأجلسه على وسادته [٤].

وشكيب قد أصاب كبد الحقيقة فيما ذهب إليه ، فإن القرآن الكريم هو الذي يقول في سورة الممتحنة : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم

---

١ - الاستاذ عبد الوهاب خلاف ، بحث في مؤتمر (الإسلام والإصلاح الاجتماعي) سنة ١٩٣٨م عن كتاب : (من أصول الفكر السياسي الإسلامي) للدكتور محمد فتحي عثمان ، ص٦١ .

٢ - شكيب أرسلان ، الشورى ، ٧ يناير ١٩٢٥م (عن شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام) ص٢١٢-٢١٣ .

٣ - سورة التوبة ، آية ١٢٣ ، والآية كاملة : «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين» .

٤ - المرجع السابق .

فأولئك هم الظالمون» [١]

ومن الأمثلة التي تدل على سماحة الإسلام وعدالته ما جاء في كتاب شكيب «تاريخ غزوات العرب» من أن اليهود كانوا مضطهدين في أسبانية ، «وكان رجال الدين الكاثوليكي يرهقونهم عسراً ويبالغون في إيذائهم .. فلما جاء المسلمون وفتحوا أسبانيا كان اليهود هناك في أشد العذاب ، فحررهم المسلمون من الرق ، وتركوا لهم الحرية التامة بأن يمارسوا شعائر دينهم ، فنشقوا نسيم الفرج» [٢]

فالإسلام لم يستعمل القوة ضد «الأديان» المخالفة للإسلام الواقعة تحت سلطانه ، ويدلل الأمير على ذلك في مقارنة بين التسامح والتعصب بين الإسلام وأوربة بما فعله الأتراك الذين «بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون في أوقات عديدة أن يستأصلوهم أو أن يحملوهم على الجلاء ، كما فعل ملوك أسبانية وفرنسا بالعرب» [٣]

إن الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الإسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدي الذي يمنع الإكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية» [٤].

ويروي الأمير أن أحد السلاطين العثمانيين أحب إخراج الملايين من الأورام والبلغار والأرمن وغيرهم من المماليك العثمانية خوفا من مغبة بقائهم «وكان كل مرة يعترض في ذلك شيخ الإسلام ويقول : ليس لنا عليهم إلا الجزية» [٥].

وهذا يثبت أن الإسلام هو الذي هذب الأتراك وحال بينهم وبين طرد المسيحيين من ديارهم [٦]، مما يثبت حرص الإسلام على تحقيق العدالة وتسامح الشريعة الإسلامية ومساوتها بين الناس أمام الشريعة.

---

١ - سورة الممتحنة ، آية : ٨ .

٢ - شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، هامش ص٣١/٣٢ .

٣/٤/٥/٦ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ، ص٢٣٨ وما بعدها .

ويؤيد ما استشهد به الأمير ما روى عن الخليفة عمر بن العزيز أن قوما من سمرقند وفدوا عليهم «فرفعوا إليه أن قتيبة بن مسلم دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فإن أمر بإخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم جميع بن حاضر الباجي فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء فكره أهل سمرقند الحرب ، وأقروا المسلمين»[1].

وقد اتخذ بعض المستشرقين - أمثال «غودفروا دومومبين» صاحب «تاريخ العالم» من بقاء الملايين من غير العرب في ظل الدولة الإسلامية على عقائدهم ، وعدم تعرض المسلمين (للكتابيين) وإرغامهم على الدخول في الإسلام - نقول - اتخذوا من هذا مدخلا للطعن في عدالة الإسلام ، وردوا ذلك بزعمهم إلى النظرة العنصرية التي نظر بها العرب تجاه الأمم الأخرى ، يقول (دومومبين) : «أما الأعاجم .. فإن العرب لم يكونوا ينظرون إليهم كقوم مساويين لهم ، ولم يكن عليهم إلا أن يؤدوا الجزية ، وهكذا يكونون آمنين على دمائهم ، وأموالهم ، وعقائدهم . فأما اشراكهم في شرف الملة الإسلامية ومنافع الإسلام في الدنيا والأخرى فلم يكن في نظر العرب ضرورياً لأنهم قوم منحطون عن درجة العرب ، وحسب الأعاجم حريتهم الدينية لأنهم أهل كتاب ، فأما المساواة مع العرب فغير مطلوبة ، والعدالة إنما هي بين المسلمين فقط»[2].

ويرد الأمير (شكيب أرسلان) هذا الإدعاء ويبين أن عدم استخدام (الحكومات الإسلامية) للقوة في حمل أهل الكتاب الواقعين تحت سلطانهم على الدخول في الإسلام هو مدعاة فخر للإسلام والمسلمين ولا يمكن أن يتخذ مدخلاً للطعن في عدالة الإسلام ومساواته بين الناس ، يقول شكيب : «إن كلام (دومومبين) هنا لا يخلو من الخلط لا سيما عند ظنه أن العرب لم يكونوا مهتمين بإدخال العجم في الإسلام ، وإنما كان همهم الوحيد إسلام العرب ، نعم إنه لما كان الخلفاء سائرين على مقتضى الآية الكريمة : «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي»[1] لم يعترضوا أحداً من الكتابيين في دينه ،

١ - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٤١١ .

٢ - حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ص١٦٨-١٦٩ .

وهذا في الحقيقة من مفاخر الحكومات الإسلامية لأنه لا يوجد أنزه ولا أشرف من الحكومات التي لا تستعمل قوتها القاهرة في سبيل استجلاب الأمم التي تحت حكمها إلى دينها . . » [٢].

فعدالة الإسلام في معاملة أهل الذمة والعهد من أتباع الديانات من رعايا الدولة الإسلامية حددها القرآن الكريم بما يكفل حريتهم الدينية ، وحقوقهم القانونية والقضائية ، ولكن هذا لا يمنع أصلاً هاماً من أصول الإسلام والذي ينبغي أن تقوم عليه الدولة الإسلامية ، وهو إلتزام دولة الإسلام بنشر رسالته في العالم ، يقول الأمير : «فقد كانت جميع سياسة الخلفاء لا سيما الأتقياء منهم تدور على محور (نشر الإسلام) » [٣].

ولذلك ينبغي أن يكون سلوك (الدولة الإسلامية) على أرضها في الداخل وبين دول العالم في الخارج قائماً على الأمانة والعدالة وحسن المعاملة متجنباً كل ما يكون فيه إساءة للإسلام ومدعاة للصد عن سبيل الله ، ويستشهد الأمير شكيب بالوقائع التاريخية التي تبين حرص الخلفاء الأتقياء على نشر الإسلام ومنها موقف الخليفة (عمر بن عبد العزيز) رحمه الله «لما شكا أحد العمال بمصر من نقص الجباية بسبب إقبال أهل الذمة على الدخول في الإسلام أجابه الخليفة عمر بن عبد العزيز : ويحك أن محمداً جاء هادياً ولم يجيء جابياً . . »[٤].

---

١ - سورة البقرة ، آية : ٢٥٦ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ص١٦٩ .

٣ - المرجع السابق نفسه .

٤ - المرجع السابق نفسه ص ١٧٠ ، وقد نقل شكيب لتأييد رأيه عدداً من الوقائع عن (عمر بن عبد العزيز) و (المأمون) و (المعتصم بالله) من كتاب فتوح البلدان للبلاذري .

الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير شكيب أرسلان

- تمهيد .
- الجامعة الإسلامية .
- الجامعة العربية .
- آراء الأمير شكيب أرسلان في «التربية» .
- بعث (المدنية الإسلامية) في مواجهة (الحضارة الغربية) .

- الرؤية السياسية لمستقبل (الأمة الإسلامية) عند الأمير (شكيب أرسلان) :

- تمهيد :

إن الفراغ السياسي الذي أحدثه ضعف (الدولة العثمانية) ثم إلغاء (الخلافة) في العالم الإسلامي دفع الأمير شكيب أرسلان لتقديم اجتهاده في علاج أزمة الخلافة الشاغرة بما يراه من نظام آخر بديل يحقق وحدة وفق روح العصر بصفة مؤقتة أو في صورة دائمة فرأيناه يدعو إلى (الجامعة الإسلامية) أو (الرابطة الشرقية) ثم إلى (الجامعة العربية) ، وأخذ يبصر المسلمين في الأقطار التي أنشب الإستعمار مخالبه فيها وصادر حرياتها وخيراتها بسبب الجهاد لاستعادة عزتها والحكم بشريعتها ، ويضع أيديهم على ثغرات التخلف والتفرق التي نفذ منها الإستعمار إلى ديارهم وجثم على أنفاسهم وبدد البقية الباقية من حيويتهم ، وبيّن أن سبيل الخلاص من واقع الأزمة يقوم على (تربية) وتنشئة أحداث المسلمين على أسس صحيحة ، وطالب بإحياء (المدنية الإسلامية) التي تبعث في قلوب المسلمين روح الاستقلال في مواجهة (الحضارة الغربية) .

ولقد حاول (شكيب أرسلان) أن يجمع بين المثل الأعلى والواقع ، ولقد تحقق المثل الأعلى الذي ينشده المسلمون في نطاق محدود من الزمان نطاق الخلفاء الراشدين الأربعة ، وهو أشد صور الحكم الإسلامي إنطباقا على الشرع [١] ، ولكن الراشدية ليست مجرد لقب لنظام الحكم الإسلامي في فترة محدودة من التاريخ كما أنها ليست مجرد التزام من الإمام المسلم بمنهج النبوة فحسب ، إنها إلتزام الأمة كلها بهذا المنهج الرباني ، لذلك تعددت أنماط الخلافة بتغيير الظروف وانحراف الأمة عن منهاج النبوة ، فعدم رشود الأمة وما يترتب عليه من تعذر وجود خليفة راشد لا يسقط مشروعية (الحكومة الإسلامية) ، بل لابد من قيامها أو الحد الأدنى منها وهو وجود حاكم مسلم واحد يقود الجماعة المسلمة كلها ويحكم بينها بما أنزل الله ، وقد عرفت الأمة نماذج

---

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ص٢٤٠ .

من نظام الحكم الإسلامي غير الخلافة (الراشدة) كما بين شكيب أرسلان هذا بقوله : «إن الخلافة لم تستتم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة سواء كان من الضرب أو من الترك إلا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج» [١].

وفي ظل الواقع الممكن يكون «للأمة الحق أن تجتهد في أشكال أخرى من أنظمة الحكم بحيث لا تخرج في حدها الأدنى عن الإطار الإسلامي أي أن تكون إسلامية متفردة غير متعددة ، وتنفذ حكم الله لا حكم الجاهلية» [٢].

وذلك لأن الإسلام كفيل بأن يقدم الإصلاح الدائم حسب الظروف القائمة والإمكانيات المتاحة ، والله تعالى يقول : «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» البقرة : ٢٨٦ ، «وما جعل عليكم في الدين من حرج» الحج : ٧٨ .

وقد يمكن في الغد مالا يتحقق اليوم ، وقد نفذ (شكيب أرسلان) ببصره وبصيرته إلى حقيقة الإسلام وطبائع النفوس والمجتمعات ، فرأى أن شرائع الإسلام بمجملها ، وأحكام الإمامة جزء منها لا تصطدم مع الفطرة الإنسانية ، ولا تكلف الإنسان إماماً كان أو مأموماً إلا وسعه ، فلا يعقل أن نجد في تطبيق المنهج الإسلامي في الحكم أو في غيره عنتاً أولا يمكن تطبيقه في أرض الواقع العملي ، مهما قدم العهد وتغير الزمان والإنسان إلا أن نجد هوى متبعاً ..

وقد تنبه الأمير شكيب أرسلان من خلال تجاربه السياسية أثناء تعامله مع الواقع أن الإسلام يمكنه أن يتعايش مع التقسيمات العرقية أو القبلية شريطة أن تستقيم له ولا تتعارض معه ، فالإسلام أقر التقسيم القبلي ونهى عن العصبية القبلية ، ولئن كانت (القومية) أوسع نطاقاً من القبلية فهي أولى ألا يعارضها الدين بل يمكنه أن يتعايش معها بشرط استقامتها له وعدم تعارضها معه .

---

١ - المرجع السابق جـ١ ص ٢٩٠ .

٢ - محمود المرداوي ، الخلافة بين التنظير والتطبيق ، ص ٣٤٥ .

وبناء على ما تقدم رأى الأمير أن إحياء الخلافة ممكن إن أحب أناس أن يستجيبوا إلى ما يحييهم ، وذلك بتكوين رابطة تجمع بين أقطار العالم الإسلامي «ومن مجموع الأقطار القوية المهيبة يتكون حينئذ رأس هو الخلافة إذا استقلت به احدى دول الإسلام كانت رأسها تطأطئ له الرؤوس» (١).

ولقد كان للأمير (شكيب أرسلان) نظرة مستقبلية في الأمور السياسية صادقة ومتميزة ، وتدعو إلى الإعجاب ، فطالما تنبأ عن أمور قبل وقوعها فجاءت كما حدث «لا لأنه أوتى علم الغيب - فالغيب يعلمه الله - ولكن لأنه يحسن التدبر للأمور ، ويحسن التطلع إلى العواقب» (٢).

وقد شهد له معاصروه بصدق فراسته ، ودقة تقديره للأمور السياسية الخطيرة قبل وقوعها ، يقول الدكتور زكي علي في هذا المقام :

«الأمير شكيب كثيراً ما تكهن في الأمور السياسية الخطيرة قبل وقوعها ، حتى إذا انحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل جاءت الحوادث مصداقاً لتكهنه ، ودليلاً على صواب حكمه ، ولا غرو أن هذا يعزى إلى سلامة فطرته وأصالة رأيه وغلو معدن ذكائه ، وما وهبه الله من قوة فراسة فوق ما امتاز به من الخبرة وبعد النظر والتجربة خلال عشرات السنين من حياته السياسية» (٣).

وشكيب أرسلان يلحظ من نفسه هذه الصفة ، ويعللها بالتفكير والتأمل ، وكثرة المطالعة ، فيقول : «لست من الكهان ، ولا من العرافين ولله الحمد ، ولا أنا بعجزي وضعفي من الأولياء الذين يكاشفون بكثير مما وراء حجب الغيب ، ولكني أفكر وأتأمل ، وأكثر مطالعة الكتب والصحف ، لاسيما ما تعلق منها بالتاريخ والسياسة ، ولذلك تصح أقوالي عن كثير من الحوادث قبل وقوعها» (٤).

---

١ - شكيب أرسلان ، من رسالة أرسلها إلى (أكرم زعيتر) سنة ١٩٣١م ، جريدة الشرق الأوسط ١٩٨٦/٣/٢٤م .

٢ - أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان ، داعية العروبة والإسلام ، ص٢٥٥ .

٣ - المرجع السابق عن «الشباب ، ١٥ ديسمبر ١٩٣٧م» .

٤ - المرجع السابق ص٢٥٦ .

ويذكر - شكيب - أنه تكهن بنشوب الحرب العالمية الأولى قبل بدئها بنحو سنة وأربعة أشهر ، ونشر ذلك في جريدة «الشعب» المصرية في ٢١ مارس سنة ١٩١٣م ، وأعاد نشره حرفياً في مجلة الفتح عدد ٥ صفر ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) [١].

ومن الوقائع الخطيرة التي تنبأ بها الأمير شكيب أن انجلترا ستنكث وعودها التي أعطتها للعرب إبان الحرب العالمية الأولى ، وأن البلاد العربية ستصير إلى إحتلال الأجانب ، وأن فلسطين ستكون وطناً قومياً لليهود ، وقد كتب إلى الشريف حسين يحذره من ذلك ، وفي هذا يقول شكيب :

«لم يمنعنا من الاشتراك في الثورة العربية سوى اعتقادنا أن هذه البلاد العربية ستصبح نهباً مقسماً بين انجلترا وفرنسا ، وتكون فلسطين وطنا قوميا لليهود ، وهذا التكهن كان عندنا مجزوماً به ، حتى أني كنت أقول قبل الحرب : لو ارتفع الغطاء ما ازددت يقينا ، ثم انتهت الحرب ، وانتصر الحلفاء ، وارتفع الغطاء ، فما حصل بالفعل شيء غير ما كنا نقول» [٢].

وقال شكيب أن الملك حسين ملك الحجاز سيندم وسيخلع من ملكه وكذلك كان ، وتنبأ بأن نفيه سيكون لجزيرة ، وكذلك كان .

ولما قيل له : ولماذا اخترت جزيرة ؟ . أجاب : لأن انجلترا لها جزائر كثيرة ، وقد نفى الملك حسين بعد ذلك إلى قبرص [٣].

كما تنبأ بنشوب الحرب العالمية الثانية وكتب سنة١٩٣١م يحذر العرب من نتائجها ، ويدعوهم إلى الاتحاد لدرء الخطر القادم ، ومما قاله في ذلك : «الوقت مخيف جداً ، والمستقبل مظلم حالك الظلام ، والحرب الأوروبية مهما تأخرت فهي آتية لاريب فيها ، وقد ينشأ عنها من تقاسم بلدان الضعفاء ومن المعاوضات والمبادلات ما نشأ في الحرب الماضية» [٤].

---

١ - المرجع السابق .

٢ - المرجع السابق ، ص١٠٦ - والملاحظ أن شكيب كتب هذا في (الشورى) عدد ١٠ إبريل ١٩٢٩م .

٣ - المرجع السابق ، ص٢٥٥ .

٤ - الفتح ، عدد ٤ شوال سنة ١٣٥٠هـ .

كما بشر الأمير شكيب أرسلان بقيام (الجامعة العربية) قبل قيامها بسنوات طويلة ، فكتب في كتابه (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف) أنه قال سنة١٩٢٩م : «إن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة ، مهما عارض في ذلك اللئام من أعدائها ، والمتفلسفون من أبنائها ، وأن هذه الوحدة آتية لاريب فيها ، ولو بعد مئة سنة أو أكثر» [١].

كما واصل الحض عليها مؤكداً ثقته في نظرته المستقبلية للأحداث فيقول - في سنة١٩٣٧م - : «وأنتم أيها العرب الكرام : إذا دعوناكم للوحدة العربية فلا تقاومونا ، ولا تهزأوا بنا ولا تقولوا : خيالات ، ولا تحملوا على مشروع هذه الوحدة كما فعل كثير منكم يوم قمنا بالدعاية إليه منذ سبع سنوات ، ثم عادوا إلي رأينا ، وصاروا في مقدمة أنصاره» .

لقد أثبتوا للناس أننا - والحمد لله - موفقون في آرائنا ، مستشعرون للأمور قبل وقوعها ، وأننا ثماني مرات في العشر نقول رأينا فينكره الكثيرون ، ثم تحققه الأيام ، وتؤيده الحوادث ، ويتجلى فيه الصواب كفلق الصبح» [٢].

ومن أخطر الأمور التي تنبه لها الأمير (شكيب أرسلان) منذ وقت مبكر : «مؤامرة التجهيل بحضارة الإسلام» ، فحذر من خضوع مناهج التعليم في البلاد الإسلامية ، ومصادر الثقافة فيها للمصادر الأجنبية - وهو ما حدث طوال فترة الإستعمار الأجنبي-[٣] ، وبين (شكيب أرسلان) أن ضرر ذلك سيكون أشد من الإحتلال الأجنبي نفسه ، وسيمتد أثره بعد تقلص الإحتلال ليزلزل ثقة المسلمين في أنفسهم ويدفعهم إلى النظر إلى الغرب نظرة إكبار بصفته المثل الأعلى في الحضارة والتقدم والرقي .

لقد كان شكيب في الواقع اخصائياً في تشخيص المرض وأساليب علاجه ومداواته بل ووصف طرق الوقاية منه قبل وقوعه ، وعلى هذا الأساس وصف الدواء الواقي وهو

---

١ - شكيب أرسلان ، الإرتسامات اللطاف ، ص٢٠٧ .

٢ - الشورى - ٣ مارس سنة ١٩٣٧م .

٣ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص٢٦٢ .

(التربية) العلمية في إطار اللغة والتاريخ والعقيدة مما يحفظ للأمة شخصيتها ودينها .

كما أثبت أنه بإمكان الحضارة الإسلامية أن تقدم للبشرية من جديد أجل الخدمات كما فعلت في الماضي ، وذلك بإثبات فضائل المسلمين على حضارة أوروبا والدعوة إلى إحياء (المدنية الإسلامية) .

وإذا كانت «الصيدلية» العربية والإسلامية تعمدت إخفاء هذا الدواء ، فسنحاول في الصفحات القادمة أن نظهره لعل الله أن ينفع بها الجهد المتواضع أمتنا الإسلامية ، ونكون بذلك قد ألقينا بعض الضوء على جانب جديد مشرق في فكر الأمير (شكيب أرسلان) .

الجامعة الإسلامية

الجامعة الإسلامية

يقوم تصور الأمير شكيب أرسلان للجامعة الإسلامية على إرادة إخراج المسلمين من وضع الإنحطاط والتفكك والضعف الذي أصاب الأمة الإسلامية في مواجهة تحدي الحضارة الغربية الحديثة الذي يظهر في أشكال عدة ويمنع بتفوقه وسيطرته نجاح أي مشروع هادف إلى إعادة توحيد المسلمين .

وكانت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية قد نشطت بعد ولاية السلطان عبد الحميد بسنوات قليلة وعلى أثر انعقاد مؤتمر برلين وافتضاح مؤامرات التقسيم التي اتفقت عليها الدول الكبرى لانتزاع بلاد الدولة العثمانية من سيادتها بغير فارق بين الاسلامية منها وغير الإسلامية [١]، ولقد أدرك الأمير شكيب أرسلان طبيعة الإتفاق بين الدول الاستعمارية فلم يكن ليعني في ذهنه إلا استمراراً للغزوة الصليبية ، تغيرت الأسماء والألقاب أم لم تتغير [٢].

ولقد قدم الأمير شكيب أرسلان للعالم الإسلامي حقيقة تاريخية بالغة الدلالة وهي أن الغرب الاستعماري يرى في الإسلام الخطر الأعظم الذي ينبغي مقاومته ، بل يرونه «أعظم من الخطر البولشفي مهما كان الخطر البولشفي عظيماً» [٣] ويسوق الأمير لإثبات تلك الحقيقة الكثير من الأدلة التاريخية البارزة منها التواطؤ بين أوروبا والروسيا القيصرية على قهر الشرق وملاشاة الدولة العثمانية ، «حتى أن هناك جملة وردت في كلام العلامة (فريرو) فيها معنى كبير ينبغي أن ينعم النظر فيه جميع المشرقيين ألا وهي قوله : «أن الروسية وانكلترة مع تناظرهما وتنافسهما في الشرق كانت كل منهما شادة أزر الأخرى» [٤].

ولم يقتصر هذا التضامن «بين أوروبا والروسية القيصرية فحسب بل بين أوروبا

---

١ - عباس محمود العقاد ، عبد الرحمن الكواكبي ص٧٢ .

٢ - د. محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص١٦١ .

٤/٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ص٣٣١-٣٣٣ .

والروسية البولشفيكية نفسها ، مع شدة العداوة بين الفريقين» [١].

«فإن الدول الغربية أثارت على البولشفيك كل قوم ترجو فيهم النهضة ، لقتال الحكومة البولشفية ، التي ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الإجتماعية الأوربية .. ولكن قد حذرت كل الحذر ، من أن تحرك على البولشفيك قوة اسلامية .. ولا راق لهم تسليح مسلمين .. وما ذاك إلا لأنهم يرون الخطر الإسلامي أعظم» [٢].

ومن الأدلة البارزة التي تؤيد موقف الأمير شكيب النظري من الغرب الاستعماري «أن فارس عرضت على انجلترا المحالفة والدخول الى جانب الحلفاء في الحرب العامة ، فأبت انكلترا مساعدة فارس .. وأن مصر عرضت نفسها أثناء الحرب العامة أن تقاتل في جانب الحلفاء بشرط الجلاء الانكليزي عن مصر بعد الحرب فأبت انكلترا أيضا ذلك.. وأغرب منه أن (تركيا) عرضت على الحلفاء أن تكون معهم بشرط أن تأمن شرورهم في المستقبل فأبى الحلفاء .. وبديهي أن رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الاسلامي مبني على أساس واحد ، وهو أن الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الإسلامية أثناء الحرب العامة ، لما كان لائقاً أن يقتسموا فيما بعد الحرب بلاد الإسلام الباقية الإقتسام الأخير ، كما كانوا ينوون أثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحرب» [٣].

ويرد الأمير الدعوة بأن الحلفاء حالفوا سنة ١٩١٥م الشريف حسينا ، وهذا ملك من ملوك الإسلام مما ينقض نظرية الأمير ، فيقول : «إنهم - أي الدول المستعمرة - ما قبلوا التحالف مع الشريف حسين بادئ ذي بدء لظنهم أنهم يستغنون عنه ، .. فلما طالت الحرب عادوا إلى قبول محالفة الشريف حسين أملا بفصل العرب عن الترك .. فما وضعت الحرب أوزارها حتى عومل العرب معاملة الأعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم» [٤].

ويؤكد الأمير شكيب «أن الحلفاء طلبوا أثناء الحرب العامة العون من كل دولة ،

١/٢/٣/٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ص٣٢٩-٣٣١ .

وعرضوا التحالف مع كل حكومة ، حتى أصغر حكومات أمريكا ، ولم يكونوا ليقبلوا التحالف مع دولة من الدول الاسلامية علماً بما ينوونه للإسلام وجميع حكوماته في المستقبل وفراراً من مكافأة دولة إسلامية بالإبقاء عليها » [١].

وهكذا ينتهي الأمير شكيب أرسلان إلى استنتاج تاريخي يؤيد فهمه لطبيعة الإستعمار الغربي المعادي للإسلام فيقول :

«فهذا من الحقائق الكلية التي ينبغي أن يتفطن لها المسلمون ولا يغيبوها عن نظرهم ، وليعلموا أن الدول المستعمرة لا تقبل من الإسلام حتى ولا الصداقة ، وأنها لا ترضى من المسلمين في جانبهم بذل الأرواح والأموال إلا مجانا » [٢].

وإنطلاقاً من هذا الفهم العميق لروح العداء الغربي للإسلام رأى الأمير شكيب ، ومن قبله الأفغاني «أن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل» [٣]، فمن سنن البقاء أن يتحد الضعفاء في وجه القوي [٤]، ولأن رد الغزوة الأوروبية لديار المسلمين هو أمر يتجاوز طاقة شعب واحد أو قطر بمفرده أصبحت (الجامعة الإسلامية) ضرورة ملحة في نظر الأمير شكيب أرسلان .

فالجامعة الإسلامية إذاً أداة وحدة المسلمين ونهجهم ، وهي بمعناها الشامل ومفهومها العام «إنما هي الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الإسلامي ، وهي قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة ، أي منذ شرع الرسول صلى الله عليه وسلم يجاهد فالتف من حوله المهاجرون والأنصار معتصبين معه بعاصبة الإسلام لقتال المشركين» [٥].

فمنشأ الجامعة الإسلامية الأصلي هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة في

١/٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، (مرجع سابق) جـ١ ص٣٣١ .

٣ - ستودارد ، المرجع السابق جـ١ ص٣٠٧ .

٤ - شكيب أرسلان (المرجع السابق) جـ٤ ص١٦٠ .

٥ - حاضر العالم الإسلامي ، (مرجع سابق) ، جـ١ ص٢٨٨ .

المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، كما أنها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب رداً لاعتدائه ودفعاً لجوره ، وهي أخيراً سنة من سنن البقاء في عالم لا يدين إلا للقوة ولا يحترم إلا الأقوياء [١].

ولقد كان الأمير شكيبأرسلان على وعي بالعقبات الكبرى التي تقف دون تحقيق دعوته الى الوحدة الإسلامية العامة ، وهي :

أولاً : إنتماء المسلمين إلى أجناس متباينة وإلى دول قومية مختلفة مما ينوطي على مشكلة التوفيق بين الإنتماء الإسلامي والإنتماء القومي .

ثانياً : مشكلة التوفيق بين المسلمين وغير المسلمين في الدولة الواحدة .

ثالثاً : مشكلة الإنتماء المذهبي التاريخي بين المسلمين [٢].

وبناء على وعي الأمير بتلك العقبات الثلاث على طريق (الجامعة الإسلامية) فقد اجتهد شكيب في رصد كل مشكلة ، وناقش الدعاة إليها ، وبين موقف (الجامعة الاسلامية) منها .

فأمام التعصب إلى الجنس الذي أخذ يشتد في داخل العالم الإسلامي ، دعا الأمير إلى الأخوة الإسلامية القائمة على قاعدة المساواة ، تلك القاعدة المقدسة التي على أساسها ظهر التضامن الإسلامي قوياً راسخاً . يقول شكيب :

«وليس التضامن الإسلامي الذي حار في أمر قوته نطس الأطباء الإجتماعيين ، ودهش من استحكام عراه جهابذة المؤرخين الأوربيين ، إلا نتيجة قوله تعالى : «إنما المؤمنون إخوة» [٣].

«وقد ظهرت في هذه الأيام الأخيرة فرق من الأمم الثلاث العربية والتركية والفارسية ، لا يريدون أن يعرفوا هذا الأصل العظيم ولا أن يقيموا له وزناً ، بل زعموا أنه هو الذي كان منشأ ضرر هذه الأمم» [٤].

---

١ - يقول شكيب : «والحقيقة أن القوة المسلحة هي العامل الوحيد الذي يؤثر بالأفرنج» ويقول : «والحق أن القوة المادية هي معبود الغربيين قبل الشرقيين» (المرجع السابق) جـ٢ ص٣٣٤-٣٣٥ .

٤/٣/٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ٤ ص١٥٨ .

وهكذا يرصد الأمير شكيب ظهور النزعات الجنسية الإقليمية نتيجة إنتشار الأفكار والآراء والروح الغربية ، ثم يعرض الأمير إدعاءات الداعين إلى العصبيات الجنسية الذين يرفضون أن يكون الدين الاسلامي هو الرابطة التي تجمع بين الشعوب الاسلامية ، والتي ينبغي أن تقوم عليها رابطة التعاون السياسي ، فيقول :

«فالذين هم من العرب يعلنون أنه لولا أخوة العرب مع الترك بالإسلام لما فقد العرب ملكهم وسلموا به للترك ، والذين هم من الترك يقولون لولا هذه الأخوة الإسلامية التي فرضها الدين لما بذلت الدولة العثمانية قوتها في الذب عن القضية الإسلامية، بل كانت حصرتها في الذب عن القضية التركية فحسب ، والذين هم من الفرس يقولون ما لنا وللعرب والترك ، كل من الأمتين عدوة لنا فلولا الاسلام لم يكن لنا بهما أدنى رابطة، فيجب أن نعود فرساً كما كنا » [١].

وقد فند شكيب مزاعم هؤلاء الذين لا يرون الاستمساك بجامعة إسلامية تشم منها رائحة الدين، وتستوحش منها نزعاتهم العنصرية ، وبين أن الإسلام لم يضر أية أمة من هذه الأمم بشيء لا في دين ولا في دنيا ، وأن تلك الأخوة والرابطة التي جمعت بين المسلمين هي التي مكنت لهذه الأمم في الأرض ، وبها عزوا بين الأمم قروناً طويلة ، يقول الأمير شكيب :

«والجواب على الفئة الأولى ، أنه لولا تلك الأخوة الشرعية ما أمكن العرب أن يقوموا بتلك الفتوحات الباهرة في صدر الإسلام ، ولا دانت بدينهم الأمم ، ولا اتخذت كتابهم دستورها ، ولا نبيهم نبيها ، فإن كانوا فقدوا الملك فيما بعد ، فلم يفقدوه إلا بتنازعهم وتنافسهم ، ولعل الأخوة الشرعية التي يشكون ضررها قد لطفت الضرر الذي أصابهم من أثر السقوط ، بحيث أن الأمة الحاكمة فيما بعد كانت ترعاهم نوعاً وتبقى عليهم بسبب جامعة الإسلام ، فلما أديل منها بدول غير إسلامية ذاقوا طعم الفرق بين تلك الدولة الإسلامية والدول الأجنبية التي خلفتها في الحكم على العرب» [٢].

---

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ٤ ص١٥٨. (المرجع السابق).

٢ - المرجع السابق ، جـ٤ ص١٥٨/ ١٦٠ .

«والجواب على الفئة الثانية أن الأواصر الإسلامية لم تضر الترك في شيء بل أعطتهم ملكاً طويلاً عريضاً ، وجاهاً كباراً لبثوا يستطيلون به على الأمم مدة قرون وأحقاب ، من أيام الأتابك والطولونيين إلى السلاجقة إلى العثمانيين الذين لم يقتصروا على الملك فقط بل استولوا على الخلافة الإسلامية أي على الرئاسة العليا على ثلثمائة مليون مسلم بين مطلع الشمس ومغربها .. إن الترك أصبحوا بعد هذا بالنسبة إلى المجموع جزءاً يسيراً في المملكة فلم يكن ليتسنى له التسلط على بقية الأجزاء لولا الوحدة الاسلامية التي جمعت بينه وبين العرب والأكراد والجراكسة والأرناؤوط والبربر وكونت من كل هؤلاء عصبية واحدة ، ولولا كونه قائماً بحياطة الدين الإسلامي تلك الحياطة التي هي عنوان الدولة العثمانية» [١].

«وجوابنا على الفئة الثالثة أن الإسلام لم يضر فارس بشيء في دين ولا في دنيا ، أما من جهة الدين فإنه نقلها عن عبادة النار إلى عبادة الواحد الأحد ، وأما من جهة الدنيا فقد ازدهرت فارس بعد الإسلام ازدهاراً لم تعرفه من قبل إلا قليلاً ، لا بل استولت فارس على الدولة العباسية العربية وصارت هي روح تلك الدولة برابطة الإسلام وحده ، لا بقوة فارس نفسها» [٢].

ويختم الأمير جوابه على هذه الفرق الثلاث بتوجيه خطاب لفئة من المصريين أيضا – الذين «يذهبون إلى أنه «ليس فيهم شيء غير مصري» وأن المسألة المصرية ينبغي أن تبقى منفصلة عن كل مسألة شرقية إسلامية أو غيرها» [٣] فيحذر الجميع بأنهم مقبلون على منحى سياسي جديد ، وليس للإنسان أن يحكم على الشيء الجديد إلا بعد التجربة ، ولكن الأمير شكيب يؤكد ببعد نظره السياسي ، ونظرته المستقبلية الثاقبة أن (سياسة الإنفراد) هذه ستقود الجميع إلى الفشل فمن سنن البقاء أن يتحد الضعفاء في وجه القوي «ومما لا مشاحة فيه أنه لا أمل باستقلال الشرق مادام مفكك الأجزاء» [٤].

١/٢ – المرجع السابق ، جـ٤ ص١٥٨/١٦٠ .

٣ – المرجع السابق جـ٤ ص١٥٠ .

٤ – شكيب أرسلان ، داعية العروبة والإسلام ، تأليف أحمد الشرباصي ، ص١٥٢ .

ولقد سبق الأمير شكيب أرسلان عصره بالدعوة إلى سياسة (التكتلات) وهي تتمثل في أسمى صورها في (الجامعة الإسلامية) لأهمية العقيدة الدينية الكبرى في توثيق الروابط بين المواطنين ، وفي إيجاد قومية مؤمنة لهم ، فإن أبى دعاة العصبيات العصرية ، فليعدلوا على الأقل إلى جامعة وطنية شرقية تشمل جميع الشرقيين من أية أمة كانوا .

«فليست الجامعة الإسلامية هي العروة الوحيدة التي يقدرون أن يتمسكوا بها ، بل الجامعة الشرقية إذا اتسقت على الوجه المطلوب في آسية كانت أوسع نطاقاً ، ولكن هذه الجامعة أيضا توجب التضامن مع سائر الشرقيين من كل أمة ومذهب» [١].

ويعود الأمير شكيب ليثبت ضرورة الجامعة الإسلامية كتوفيق بين مقتضيات التعصب القومي ومقتضيات التعصب الإسلامي فيذكر أن «الدول الاستعمارية تحارب الجامعة الإسلامية والرابطة الوطنية معاً ، ولكنها تخاف من الجامعة الإسلامية أكثر ، وذلك لأن الجامعة الإسلامية تقول أن من يخرج عن الرابطة الوطنية يعد في نظر قومه خائناً وكافراً معاً ، فلا يكون آثما أمام الناس وحسب بل يكون آثما أمام الله أيضا ، وغير خاف أن رابطتين أشد من رابطة واحدة ، وأن رابطة يعتقد صاحبها أنها مناط ثواب أو عقاب في الآخرة هي أمتن من رابطة لا ثواب ولا عقاب فيها ، وإنما هي دنيوية محضة» [٢].

ويلخص الأمير شكيب براهينه على رأيه في تفضيل الرابطة الإسلامية الدينية على الرابطة الجديدة الوافدة التي تسمى (بالوطنية) المجردة عن الإسلام ، فيقول :

أولاً : الوطنية المجردة الملحدة لا تمنع الذوبان في الأجانب كما تمنعه العقيدة الإسلامية ، فإن الأولى تمنعه من الجهة الدنيوية فقط ، وأما الثانية فتمنعه من الجهة

---

١ - شكيب أرسلان ، الفتح ٨ شوال ١٣٤٩هـ .

٢ - شكيب أرسلان ، داعية العروبة والإسلام (مرجع سابق) ، ص١٤٨-١٤٩ .

١ - «وقد كان السيد جمال الدين أول من وضع أساس الجمع بين الرابطة الشرقية السياسية والجامعة الإسلامية وتولية العاملين لكل منهما وجهته من غير تعارض وكل من ترجمه من المسلمين والنصارى يعترف له بذلك» محمد رشيد رضا - تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ١ ص٢٨٩ .

الدنيوية والأخروية معاً .

ثانياً : الوطنية المجردة عن الإسلام معرضة لما ليست تتعرض له الجامعة الإسلامية من خطر انحلال الأخلاق التي هي دعائم الأمم .

ثالثاً : العقيدة الوطنية المجردة لا تبعث من الآمال في حسن المآل ما تبعثه العقيدة الإسلامية المبنية على المواعيد الصريحة بالقرآن لمن عمل به .

رابعاً : العقيدة الوطنية المجردة لا تزرع في صدر الشرقيين عزة النفس والاعتقاد بالكرامة الشخصية كما تزرعه العقيدة الاسلامية في صدور المؤمنين الذين يقول لهم قرآنهم : «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» .

خامساً : العقيدة الوطنية المجردة تفك ما بين المسلمين من عرى الارتباط ، مما يفقدهم بذلك قوة لا عوض لهم عنها [1].

أما العقبة الثانية التي تعترض قيام (الجامعة الاسلامية) فهي مشكلة التوفيق بين المسلمين وغير المسلمين في الدولة الواحدة ، وفي هذا يقرر الأمير شكيب أن قوة الأخوة والرابطة بين المتحدين في العقيدة أمر طبيعي ، ولكن هذا لا يمنع أبداً من التآخي في الوطنية بين المسلمين وغير المسلمين ، فيقول : «وإن كان بين المسلمين أثر من الجامعة الإسلامية فليس من عجب في ذلك لسببين :

أحدهما : أن التضامن بين الضعفاء أمر بديهي لا يحتاج إلى برهان ، حتى ولو لم ينتموا إلى عقيدة واحدة ، فكيف إذا اتحدوا في عقيدة ؟

الثاني : أن المسلمين من حيث المجموع يعتقدون بقرآنهم وشريعتهم ، ويزون فيهما سعادتهم وراحة وجداناتهم ، وفي القرآن الكريم : «إنما المؤمنون إخوة» فالمسلم يجد إخاءه للمسلم فرضا محتما عليه ، ومؤازرته من باب الشرع الذي من ترك شيئا منه فهو آثم .

---

١ - د. محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص١٦٥ .

ولا يؤخذ من ذلك أن هذه الأخوة بين المسلمين حاجزة دون الإخاء مع غير المسلمين ، كما يتوهم بعضهم ، أو كما يفتري آخرون ، كلا ، بل يرتبط المسلمون مع غير المسلمين برابطة الإنسانية » [١].

إن جوهر الدعوة إلى الجامعة الإسلامية سياسي إلى حد بعيد ، ولذلك فهي لا تتوجه بالعداء إلى الفرق الدينية الأخرى ، وإنما إلى الاستعمار الغربي تحديداً ، يقول الأمير :

« فالجامعة الإسلامية ليس معناها في نظرنا أن يقوم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ليؤلفوا كتلة واحدة ليقاتلوا كل من هو غير مسلم » فالجامعة الإسلامية هي أكثر من ذلك ، فهي تجمع المسلمين إلى غير المسلمين في إطار الغايات الواحدة ، هي تقدم للمشرقيين عموماً ، وليس للمسلمين فحسب ، يعتصمون بها فتغدوا أداة توحد للشعوب المقهورة ، تماما كما وجد الأوروبيون أداة توحدهم :

« فبعد أن تقرر وجود هذا التضامن المتين بين جميع الأوربيين في وجه الإسلام والشرق بأسره ، لا عجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموما والمسلمين خصوصاً [٢] لا سيما أن بين هؤلاء رابطة دينية .. » [٣].

ولذلك لا يرى شكيب في قيام الجامعة الاسلامية خطراً على غير المسلمين في داخل البلاد الإسلامية ، بل هي دعامة للشعوب الشرقية بأسرها ، ويستشهد شكيب لذلك بقضية فلسطين إذ أن كثيرين من المسلمين يؤيدونها ويدافعون عنها برابطة الإسلام ، فيقول شكيب : « إن الجامعة الاسلامية ليست بخطر على غير المسلمين من العرب ، بل هي عضد للشعب العربي بأسره ، فلماذا يعطف مثلا مسلمو الهند والجاوي والفرس والترك والبشناق والأرناؤوط على فلسطين ؟ الجواب : لأنها مسلمة ، لا لأنها عربية » [٤].

---

١ - شكيب أرسلان ، داعية العروبة والإسلام ، (مرجع سابق) ، ص١٤٩ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، (مرجع سابق) ، جـ١ ص٢٣٨ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ٢ ص ٣٤ .

٤ - شكيب أرسلان ، مجلة الشورى ، عدد ١٩٢٥/١٢/٣١م

أما وضع غير المسلمين في داخل الدولة الإسلامية فقد حدده الشرع الإسلامي في حقوق أهل الذمة ، والتاريخ يشهد على الترك في عهد الدولة العثمانية «بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون في أوقات عديدة أن يستأصلوهم أو أن يحملوهم على الجلاء ، كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب .. إن الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الإسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدي الذي يمنع الإكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية» [١].

وثمة عقبة ثالثة تخترق الأقطار والشعوب الإسلامية وتحول دون اجتماعهم ووحدتهم ، وهي الإنتماء المذهبي التاريخي بين المسلمين ، فالمسلمون ينقسمون تاريخياً إلى سنة وشيعة ، وفي داخل كل قطر من أقطار العالم الإسلامي تتعدد المذاهب، وقد تختلف الفرق والعصبيات في القطر الواحد وبين من ينتمون إلى جنس واحد وأصل مشترك وتجمعهم رابطة الإسلام .

ولقد حرصت الدول الإستعمارية على بث الإحن أينما حلت وعلى بعث النعرات والعصبيات في الشعوب الإسلامية ، وأخذت تدفع هذا ضد ذاك كيما يكون الشقاق مدخلاً لتدخلها وحجة لاستعمارها ، يقول شكيب :

«إذا كان عمال فرنسا منذ أول احتلالهم لسورية ، أي منذ سنة ١٩١٨م إلى ساعة تحرير هذه السطور ، لم يفتروا يوماً واحداً عن تأريث الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى في سورية وبين النصارى والدروز في لبنان بعد أن كانت هذه الضغائن والذحول قد سكنت وتلاشت تقريبا ، فتجد سورية ولبنان اليوم في أسوأ حال من هذه الجهة مما بذرته يد الاحتلال التي ظنت أنها لا تمتد إلا على بساط شقاق ، ولا تتمكن إلا من خلال فتنة ، فماظنك بما كان يفعله عمال فرنسا في الجزائر من تحريك الإحن بين العرب والبربر» [٢].

لذلك حرص الأمير شكيب على مواجهة التعدد المذهبي الذي يصيب رابطة العقيدة

١ - أحمد الشرباصي «شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام» ص٨٠ ، نقلا عن «عروة الإتحاد» ص٣٦ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ص١٨٧ .

الواحدة بالضعف ، إن لم نقل بالشلل في وجه التحدي الغربي ، و أبرز الأمثلة التي تمثل سياسة الأمير في جمع الكلمة وعدم التفرقة بين الأمة دفاعه عن إسلام الطائفة الدرزية وأصولها العربية ، وفي ذلك يستشهد بموقف الدولة العثمانية منهم فيقول :

« والدولة العثمانية أيام كانت هي الخلافة الإسلامية عرفت الدروز مسلمين ، ولما كان جماعة من مشايخ دروز حوران في الاستانة صدرت إرادة السلطان عبد الحميد الخليفة يومئذ بأن يصلوا الجمعة وراءه في جامع يلدز ، ولهذا أنا لا أفهم : ما وجه الضرورة لفتح مسألة ديانة الدروز وما فيها من مخالفة الإسلام ، في وقت يسفك فيه الدروز دماءهم باسراف في الدفاع عن حوزة تسعة أعشارها - لا بل أكثر من تسعة أعشارها - للمسلمين ، لأن الدروز في سورية ١٥٠ ألف نسمة ، والمسلمين يزيدون على المليونين » [١].

ويختتم الأمير شكيب دفاعه عن عروبة الدروز قائلاً : « فأولئك الذين يعدون الأجانب بأن آل معروف - يقصد الدروز - يكونون إلى جانبهم على الأمة العربية قد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً . فمهما يكن من العوامل فإنه متى انقسم الناس ، ولحق كل فريق بأهله ، فأبناء معروف لا يخرجون عن الجامعة العربية ، ولا من الجامعة الإسلامية ، ولن يقدر أحد أن يخل بهذه القاعدة : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » [٢].

والأمير شكيب أرسلان لا يستطيع في دعوته إلى الوحدة بين المسلمين تجاهل انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة ، وهو الإنقسام الأخطر في تاريخ الإسلام ، وخاصة بعد انتشار (التشيع) في بلاد فارس واتخاذه أداة سياسية المقصد منها مقاومة الحكم العربي .

ولقد بحث الأمير شكيب أرسلان نشأة التشيع ورأى أن العرب أقدم فيه من

---

١ - المرجع السابق ، جـ١ ص١٨٦ .

٢ - المرجع السابق ، جـ١ ص١٦٢ .

الفرس، «فالتشيع لم يبدأ في فارس بل بدأ في الحجاز نفسه أي في موطن العرب ، وظهر بعد ذلك في الشام بواسطة أبي ذر الغفاري» [١].

«ولكن مما لا مشاحة فيه أن أهل فارس يغلون في علي وآل البيت أكثر جداً من الشيعة العرب ، كالزيدية في اليمن ، والمتاولة في الشام ، والشيعة في العراق» [٢].

وعلى الرغم من تشيع العجم لآل البيت مع علمهم بأنهم من العرب الأقحاح إلا أن تشيعهم لم يقربهم من العرب ، بل بقوا على بغضهم للعرب واستكبارهم الخضوع لهم ، وهذا ما سجله الأمير شكيب ولمسه بنفسه من مخالطة بعض فضلائهم ، وكان مثار دهشته وتعجبه ، يقول شكيب :

«ومن الغريب أن كثيراً من العجم مع تدينهم بالإسلام ، وشدة استمساكهم بالتشيع لآل البيت ، لا تزال تجد فيهم في الأحايين آثار البغضاء للعرب ، وهم يعلمون أن آل البيت الذين يقدسونهم هذا التقديس كله هم عرب أقحاح ، بل هم سنام العرب» [٣]

ويخرج الأمير شكيب من دراسته وتأمله لنفسية الفارسي التي تجمع بين الحب والبغض في مكان واحد - كأن الواحد من هؤلاء له نفسيتان إحداهما إسلامية والأخرى فارسية [٤]- بحقيقة خطيرة لها أثر عظيم في خلخلة تماسك الوحدة الإسلامية عبر التاريخ ، وهي «أن القومية الفارسية لم تندثر بالديانة الإسلامية التي جاءت من العرب، وأن هناك عوامل خاصة تجعل الفرس يميلون إلى آل البيت ، منها أن استيلاء العرب على فارس أوجد في العجم مناوأة للدولة ، التي استولت على بلادهم ، وأزالت ملكهم ، فلذلك رأيتهم انتصروا لبني العباس والعلوية ، يوم كانوا يداً واحدة في حرب بني أمية الذين كانوا مركزهم الشام ، ومازالوا حتى حولوا الخلافة إلى العراق ، وصارت الدولة العباسية كما يقول كثير من المؤرخين مطبوعة بطابع المدنية الفارسية» [٥].

---

١ - المرجع السابق ، جـ١ ص١٦٣ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ص١٦٣ .

٣ - المرجع السابق جـ١ ص١٨٧ .

٤ - المرجع السابق جـ١ ص١٦٤ .

٥ - المرجع السابق جـ١ ص٦٤ .

كما أن الفرس قد نقلوا كثيراً من عقائدهم القديمة إلى الإسلام ، وانتقضوا على العرب مراراً ، وحاولوا تأسيس ممالك فارسية في وجه الخلافة العباسية ، وأنهم أيضا احتفظوا باللسان الفارسي في وجه اللسان العربي ، وأن تشيعهم للعلوية إنما كان أكثره ناشئا عن أغراض سياسية في أصلها [١].

وهكذا ظل العجم عامل ضعف في كيان الأمة الإسلامية المتماسك عبر العصور فلما كان هذا العصر (عصر القوميات) - اقتداء بالأمم الأوروبية في الزمن الأخير - اشتدت (القومية الفارسية) أكثر من ذي قبل ، وذلك نظير ما حصل عند الترك [٢].

ويشير الأمير إلى خطورة التمادي في بعث العصبيات إلى درجة ظهور الدعوات في بعض الممالك الإسلامية إلى نبذ الإسلام وبعث المعتقدات الوثنية القديمة بعد أن أنقذهم الله منها ، وطهرهم من سفالاتها ، يقول الأمير :

«وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم ، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم ، وعن الذئب الأبيض الذي كانوا يعبدونه ، حتى صوروه في بعض كتبهم الحديثة [٣].

وينقل الأمير شكيب رد المرحوم موسى كاظم شيخ الإسلام على حنين بعض شبان الترك إلى ديانتهم القديمة وإلى عبادة الذئب الأبيض استكبارا لاتباع الأمة التركية ديانة صادرة عن العرب قوله :

«إن العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشعر منها الأبدان ولكنهم اقتلعوها بالإسلام وافتخروا بأن الله لطف بهم ، وأنقذهم منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات. وأما أنتم فتريدون أن تتناسوا الإعتقاد بالباري تعالى ، وتتذكروا عبادة الذئب الأبيض.. فيالأسف !! [٤].

وما قيل لناشئة الفرس والترك يقال لبعض ناشئة المسلمين :

---

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ص١٦٤ .

٤/٣/٢ - المرجع السابق ، جـ١ ص١٦٧-١٦٨ .

«من أمة الجاوي الذين يبحثون عن مذهب بوذا الذي كان مذهب الجاوي قبل أن أسلموا ، ويدرسونه وكأنهم يريدون أن يحيوا آثاره» [١].

«كذلك في الهند شبان كثيرون من المسلمين يكرهون الجامعة الإسلامية ويفضلون عليها الجامعة الهندية اتباعاً للهنادك» [٢].

«وعند بعض الناشئة المصرية نزعة محسوسة إلى الأوابد المصرية القديمة ، والحضارة الفرعونية ، وميل إلى التفصي من النسبة العربية والحضارة العربية» [٣].

«وكل هذا تعصباً من هؤلاء الأقوام لقومياتهم بزعمهم وشعوراً منهم بشيء من الكبر عن أن يتبعوا ملة ليست من سلالتهم» [٤].

وعلى كل هؤلاء الذين تجاوزت عصبيتهم حدود الجنس والنسب إلى التعصب للمذاهب والمعتقدات البالية مع ما فيها من وثنية وحط من قدر الإنسانية بل وتفضيلها على دين الحق والهداية الذي أخرج الله به الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان والعزة ، بدعوى استكبارهم الخضوع لدين أصله من العرب ، يرد الأمير شكيب بأن الإسلام ليس بدين يفرق بين عربي وعجمي، وأن مبدأه الأساسي : «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وأن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلى العرب وحدهم بل إلى البشر كافة ، فإن كانت المساواة تامة في دين من الأديان أمام الخالق تعالى فهي في الإسلام» [٥].

ومن أعجب الشواهد على فساد عقل هذه الفئة سواء من الترك أو من العجم أنهم يجعلون الأمم الأوروبية قدوتهم في كل شيء ولا يرون : «أن الأوربيين وهم أرقى الأمم والغالبون على أكثر الكرة الأرضية وهم يعلمون أنهم جميعا من الجنس الآري ، يتبعون ديانة رجل يهودي من الجنس السامي المحض ، ولا يستنكفون عن أن يعبدوه وعن أن يؤلهوه ، ومنهم من يعبد أمه .. فهل سمعنا أن أحداً من الأفرنج استكبر أن يتبع سيدنا

٣/٢/١ - المرجع السابق ، جـ١ ص١٦٧-١٦٨ .

٥/٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ص١٦٨ .

عيسى عليه السلام ؟ .. كلا » [١].

«أفلم يكن في ذلك عبرة للعجم والترك وغيرهم ممن يأبى كبر بعضهم أن يتبعوا دين النبي العربي وهم غير مكلفين أن يؤلهوه ولا أن يقدسوه تقديس الأفرنج للمسيح»[٢].

ثم يختتم شكيب رده المفحم على أدعياء القوميات هؤلاء بقوله «فياليتهم اقتدوا بالأفرنج في عدم ادخال العقائد في القوميات» [٣].

وأمام كل هذه العقبات لا يفقد الأمير شكيب تفاؤله ، ولا ثقته في نجاح دعوته إلى (الجامعة الإسلامية) بل يرى أن المحن التي حلت بالدول الإسلامية ، والضعف الذي أصاب الأمة في العصر الحاضر قد نبها المسلمين إلى ما يهددهم من خطر ، وإلى ما يضمره الغرب لهم جميعا من الغدر والشر ، فكان ذلك سببا في طرح ما بين الأحزاب المختلفة من الأحقاد ، واجتماع مشاعر المسلمين على وجوب نبذ الفرقة والتماسك أمام العدو المشترك .

يقول شكيب : «ولما كان ضعف الأمة الواحدة يزيل ما بين أحزابها المختلفة من الأحقاد فقد كان من نتائج ضعف الأمة الإسلامية في العصر الحاضر ، زوال كثير من البغضاء التي كانت عند العجم لأهل السنة ، وزوال مثل ذلك من أهل السنة للشيعة ، وقد يورث الخير شراً والشر خيراً» [٤].

ويؤكد الأمير شكيب «أن الأمة الفارسية في العصر الحاضر تشعر بشعور العالم الإسلامي جميعه ، فتهتم لتركيا ، ولبلاد العرب ، ولمصر ، وللمغرب ولكل بلاد الإسلام اهتماما أكيداً ، ويكرثها ما يكرث المسلمين ، ويسرها ما يسرهم » [٥].

---

١ / ٢/ ٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ص١٦٨ .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ص١٩٢ .

٥ - المرجع السابق .

ولقد ظل الأمير شكيب أرسلان منذ نعومة أظافره مناصراً (الخلافة الإسلامية) ، على اعتبار أنها المظهر السياسي الأعلى (للجامعة الإسلامية) [١]، وعلى الرغم من محاولات الأمير في معالجة دولة الإسلام ، وتحذيره من سقوطها إلا أن التاريخ جرى على غير ما يشتهي ويروم ، وانتهت الحرب العالمية الأولى بسقوط الخلافة الإسلامية بعد هزيمة الدولة التي كانت قوام أمرها وواسطة عقدها .

ومع أن شكيب قد أدار ظهره لحكام تركية بعد أن قطعوا روابطهم بالعرب والمسلمين ، وأخذ يجاهد مستقلا من أجل وحدة العرب وأخوة المسلمين ، فقد ظل يظهر حزنه على إلغاء الخلافة ، لأنها كانت في نظره أحسن علاقة جامعة بين المسلمين، وهو مع ذلك يقول في تعقيبه على فصل الجامعة الإسلامية من كتاب (حاضر العالم الإسلامي) : «إن الخلافة لم تستتم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة سواء كان من العرب أو من الترك إلا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج»[٢].

ولقد تصدى الأمير شكيب أرسلان لدعاة (القومية العربية) في زمن (الخلافة العثمانية) ، ولكن بعد تنكر الحكام الأتراك للإسلام - أولئك المسلمون الجغرافيون (كما يصفهم شكيب) الذين تواطأوا مع الأجانب في لوزان على إلغاء الشريعة الإسلامية من بلادهم [٣] إلتفت الأمير إلى الأمة العربية ، فرأى بثاقب بصره ونظرته أن الإبقاء على البلاد العربية إبقاء على عمود الإسلام ، فأطلق أول دعوة للوحدة العربية ، وأول فكرة لتأليف (الجامعة العربية) بوصفها أفضل بديل متاح من (الجامعة الإسلامية) التي تفككت عراها بسقوط (الخلافة الإسلامية) ، حتى قال له الملك فيصل : «أشهد بأنك أول عربي تكلم معي عن الوحدة العربية» [١].

---

١ - أحمد الشرباصي ، «شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام» ص٢١٤ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي جـ١ ص٢٩ «هامش» .

٣ - أحمد الشرباصي ، «شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام» ص٢٢ .

ومع ذلك ظل الأمير مخلصاً (للجامعة الإسلامية) ولم يتخل عن الدعوة إليها ، مؤمنا بمستقبل الإسلام ، واثقا بسيادته للعالم ، وبنشره العدل بين ربوعه ، وإقامته السلام والطمأنينة مقام الحروب والقتال : «هذا وأن رأينا الذي نعول عليه أولا وآخرا ، ونرجع إليه باطناً وظاهراً ، أن الشرق أجمع سيتنبه من رقدته ، وينهض من كبوته ، وأنه كما شهد القرن التاسع عشر استقلال أمريكا بأسرها ، فسوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسية بعروتها وزرها ، وأنه لا تمضي الثمانون سنة الباقية لتمام هذا القرن حتى يلي الإسلام بلاده ، ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده ، ليس هناك كهانة ولا عرافة ، ولا هي مقاصد ترك بالرقي أو العيافة ، ولكن يعرف المستقبل من الحاضر ، ويدل الأول على الآخر» [٢].

«هذا وإن نهوض الشرق هو الشرط الأول في سؤدد السلام ، وراحة الأنام ، وحقن الدماء الحرام ... وما دام الغربيون يرون الشرق لجيوشهم مجالاً ، والإستعمار لدول أوروبا ليلاً تقفوه يمينا وشمالاً ، فالحروب بين الدول قائمة متتابعة إلى قيام الساعة .. والإختراعات التي تفتخر بها المدنية مصروفة إلى استئصال البشر وناهيك ما في مدنية كهذه من الشناعة» [٣]

«وما دامت جمعية الأمم مثل العروض بحراً بلا دماء ، ما وجدت إلا لتلبس الإعتداء حلة قانونية ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الأسماء ، لا يطيعها سوى ضعيف عاجز ، ولا تستطيع أن تحكم على قوى متجاوز ..»

«فلا مندوحة للأمم الشرقية عند الإقتداء باليابان في إلتماس المنعة ، ومضارعة الدول الغربية في ارتياد العلم واقتباس الصنعة»[٤].

---

١ - شكيب أرسلان ، «رشيد رضا» ص١٦١ .

٤/٣/٢ - شكيب أرسلان ، جـ١ ص(ك) ١٩٢٥/٣/٢١م .

الجامعة العربية

الجامعة العربية

مع سقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨م انتهت السياسة الإسلامية في الإمبراطورية العثمانية ، وبرزت العصبية القومية التي حاربها عبد الحميد بكل جهده أيام حكمه ، وكان العرب والترك يلتقون عند الإسلام الذي يوحد بينهم ويسوي بين أفرادهم ، فلما صاح الترك مفاخرين بطورانيتهم استيقظ في العرب فخرهم بمجدهم القديم ، فبدأ العرب - وهم الأمة التي ظهرت فيها الرسالة الإسلامية ونزل كتابها بلسانهم - يستنكفون من حكم الترك الذي بسط عليهم نفوذه منذ القرن السادس عشر .

ولكن لم تظهر المسألة العربية ظهوراً مستقلاً في التاريخ الإسلامي عن الفهم الإسلامي للأمة إلا بعد أن أعلن الشريف حسين (الثورة العربية) في ٩ شعبان سنة١٣٣٥هـ (١٠ يونيه ١٩١٦م) على وعد من الإنجليز أن يجعلوه ملكا على الدولة العربية التي تشمل جزيرة العرب والعراق وبلاد الشام ، وأن لا يعارضوا في تنصيبه خليفة على المسلمين ، وخاض الحرب هو وأولاده في سبيل ذلك إلى جانب الحلفاء حتى دخلوا دمشق تحت رايته ، راية الثورة العربية [١].

ولقد كان الأمير شكيب أرسلان على وعي بما ستجره هذه الثورة على العرب من ويلات ، فكتب للملك حسين حين علم عزمه على الإغارة على سوريا مع الجيوش الإنجليزية ، ينهاه عن المضي فيما هو فيه من دعوة زعماء السوريين للخروج على الدولة العثمانية والإلتحاق بالجيش الحسيني العربي ، ويحذره عاقبة هذه الغارات التي يضرب فيها العرب بالعرب خدمة لمصلحة العدو ، إذ يقول : «أتقاتل العرب بالعرب أيها الأمير ، حتى تكون ثمرة دماء قاتلهم ومقتولهم استيلاء انكلترا على جزيرة العرب، وفرنسا على سوريا ، واليهود على فلسطين ؟» [٢].

والأمير يحذر في رسالته من غدر الإنجليز الذي يملأ التاريخ شواهده ، ويخاطب القائمين بالدعوة العربية والمخدوعين بها قائلاً :

---

١ - د. محمد محمد حسين ، أزمة العصر ، ص٥٠ .

٢ - المنار م٢٥ ، ج٩ ص٧١٣ ص٧١٣-٧١٨ .

«قل لهؤلاء القائمين بالدعوة العربية ، الناهضين لحفظ حقوقها وأخذ تاراتها : ماذا إلى اليوم أمنوا من حقوق العرب بقيامهم ؟ ليقولوا لنا ماذا أقاموا للعرب من الملك حتى نشكرهم ونقر بفضلهم ، لأننا عرب نحب كل من أحب العرب ، ونبغض كل من أبغض العرب ، ولا نبالي بالقيل والقال أمام الحقائق» [١].

ولقد سلم الكثيرون بصواب رأي شكيب في القضية العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، ومنهم من صارحه بهذا واعتذر إليه ، ومنهم من وضع يده في يد شكيب ، ومنهم من اقتنع عملياً وإن لم يعتذر بلسانه [٢]، ويقول شكيب في ذلك : «فلما انجلى الغبار وانكشفت الأسرار ، وعرفوا أني ما تكهنت إلا بما وقع عادوا فوضعوا أيديهم في يدي وعولوا علي ، ومن هؤلاء الملك فيصل رحمه الله ، فإنه ما سقط عن عرشه في دمشق حتى أرسل إلي بمكاني في برلين رسالة تدل على منتهى الثقة ومزيد الإعتقاد بإخلاصي للقضية العربية ، وأفضى إلي بأسرار لا يفضي بها إلى أعز الناس عليه ، وبعد ذلك بسنوات جاءني منه كتاب هو عندي يقول فيه : أشهد بأنك أول من تكلم معي من العرب في قضية الوحدة العربية» [٣].

«والواقع أن الذين دعوا إلى (الجامعة العربية) في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي كانوا مختلفين في تصورهم لهذه الجامعة ، متباينين في أغراضهم التي يستهدفونها من وراء هذه الدعوة ، كانت الجامعة الإسلامية وقتذاك هي الرابطة التي تربط أجزاء الدولة العثمانية ، وتجمعهم تحت راية السلطنة العثمانية التي جمعت بين الزعامة السياسية والزعامة الدينية منذ تلقب سلاطينها بلقب الخلافة الإسلامية» [٤].

«وكان بعض دعاة ما سمي في ذلك الوقت بالجامعة العربية من المسلمين خاصة لا يرون تعارضا بينها وبين الجامعة الإسلامية ، ويسلمون بأنها هي الجامعة الأولى ،

---

١ - المرجع السابق .

٢ - أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص١٠٧ .

٣ - شكيب أرسلان ، السيد رشيد رضا ، ص١٦٠ .

٤ - د. محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، ص٢٠٨ .

والأهم بين المسلمين في سائر الأرض ..» [١]

«وكان بعضهم الآخر يدعو إلى نقل الخلافة للعرب ..» [٢].

«وكان هناك فريق ثالث من المسلمين أنفسهم واقع تحت تأثير الدعوات القومية المتطرفة التي اشتدت حركتها في أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .. وهذا الفريق يلتقي في تصوره القومي مع غلاة القوميين من الترك الذين يدعون إلى القومية الطورانية ، والذين كان أكثرهم منضماً إلى حزب الإتحاد والترقي ..» [٣].

«أما المسيحيون .. فقد كان من الطبيعي أن يكونوا ضمن الفريق الذي يرى الجامعة العربية قومية خالصة ، لأنه غير داخل بحكم مسيحيته في الجامعة الإسلامية ، وليس له ولاء قلبي لها ، فكل الذي يربطه بالدولة هو الولاء السياسي ..» [٤].

وقد تسابق الاستعمار الإنجليزي والفرنسي والصهيونية إلى احتضان الحركة العربية الثائرة على تركيا منذ ظهورها ، وقد وجدوا أنها تلتقي مع أطماعهم في فترة مرحلية تمهد لتحقيق أغراضهم .

كما أكد الأمير شكيب أن الإنجليز كانوا على اتصال بالشريف حسين قبل وأثناء الحرب الكبرى الأولى ، وكانوا يتظاهرون بالموافقة على نقل الخلافة الإسلامية إلى الشريف حسين حتى يطمئن إليهم ، ويسلس لهم القياد [٥].

لذلك دعا الأمير شكيب العرب إلى عدم الإنخداع بدعاوي الاستعمار ، وإلى

---

١ - المرجع السابق ، وكان يمثل هذا الفريق في مصر (مصطفى كامل) .

٢ - بدأ هذا التصور الإسلامي في مصر واضحاً في كتاب الكواكبي «أم القرى» ، كما كان يبدو في صحيفة «المنار» لمحمد رشيد رضا ، وإن كان الأخير قد دأب على مهاجمة الشريف حسين من بعد ، حين تبين له أنه آلة في يد الإنجليز لتحقيق أهدافهم لا لتحقيق أهداف العرب «د. محمد محمد حسين ، الإتجاهات الوطنية ، جـ٢ ص١٢٣» .

٣ - د. محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية (مرجع سابق) ص٢٠٩ .

٤ - المرجع السابق .

٥ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي جـ١ ص٣٩٠-٣٩١ .

وجوب الإلتفاف حول راية الخلافة العثمانية ، والإعتصام بها في وجه الأطماع الاستعمارية التي تنتظر بفارغ الصبر الوقت الملائم لاقتسام البلاد الداخلة في هذه الدولة.

ولم يكن هذا هو رأي الأمير شكيب وحده ، بل كان يراه أيضا جمع من العرب ، وإن كانوا قلة بالنسبة إلى مخالفيهم ، ولذلك نرى شكيب يتحدث عن استمالة الإنجليز للعرب ، وجعلهم ضد تركيا في الحرب العالمية الأولى ، ثم يقول : «فصار بين العرب حزب غير قليل ينزعون إلى الإنفصال عن الدولة قلبا وقالبا ، متوقعين لذلك أول فرصة، ولا يمكن أن يقال أن هذا رأي الجمهرة من الأمة العربية ، بل في الحقيقة كان عقلاء العرب يفقهون أنه إذا وقع الإنفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الإفرنج ، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفاً من حكم الأجانب» [١].

وانتهت الحرب العالمية الأولى ، ووزع المشرق العربي بين انجلترا وفرنسا كما توقع شكيب أرسلان ، أما المغرب العربي ، فقد كان شطر منه في يد فرنسا من قبل ، وكانت مصر في قبضة جيوش الاحتلال الإنجليزية منذ الثورة العرابية ، وكانت ليبيا محتلة بالجيوش الإيطالية منذ غزتها قبيل الحرب العالمية .

وعند ذلك شهد الجميع ببعد نظر الأمير شكيب أرسلان ، وسلامة موقفه السياسي من أحداث عصره ، ودقة استشعاره للأحداث قبل وقوعها ، حتى قال الحاج أمين الحسيني سنة١٩٥٥م : أن شكيب لم ينخدع في الحلفاء مع المنخدعين ، وكان يجاهر بهذا ، ويقول لمخالفيه : «أنا أشد عربية منكم ، ولكن أعلم أن الحلفاء سينكثون عهودهم وستظهر الحقائق لكم» [٢].

ولقد كان الأمير شكيب أرسلان واثقاً في حسن تقديره للأمور ، مؤمنا بصواب الخط السياسي الذي ينتهجه ليس بمجرد الحدث والتخمين بل بناء على قرائن وأدلة

---

١ - شكيب أرسلان ، تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص٣٤١ .

٢ - أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص١١٠ .

ثابتة عنده [١]، وبناء على تفكير سياسي عميق لا ينخدع بظواهر الأمور ومقدماتها ، وكان على وعي بما يدبر لأمته في الخفاء ، وكان يقول : «لقد أثبتوا الناس أننا - والحمد لله - موفقون في آرائنا ، مستشعرون للأمور قبل وقوعها ، وأننا ثماني مرات في العشر نقول رأينا فينكره الكثيرون ، ثم تحققه الأيام ، وتؤيده الحوادث ويتجلى فيه الصواب كفلق الصبح» [٢].

ولكن تركيا العثمانية الإسلامية سقطت في امتحان الحرب ، فكان لسقوطها وقع بدل وحول في الكثير من المفاهيم والمعتقدات السياسية الراسخة في العالم الإسلامي ، كما سقط بسقوطها الشكل السياسي للجامعة الإسلامية التي كانت هاجس شكيب أرسلان وشاغله في المرحلة الأولى من حياته ، وبدأ بعدها في التحول إلى المرحلة الثانية في اتجاه (الجامعة العربية) .

ولكن التحول هذا هو تدرج وامتداد وليس إنقلاباً [٣]، ففهم الأمير شكيب أرسلان للجامعة العربية في المرحلة الثانية لم يكن سوى امتداد طبيعي لجوهر الغايات التي حكمت جهاده في سبيل الجامعة الإسلامية في المرحلة الأولى .

وينطلق الأمير شكيب أرسلان في فهمه (للجامعة العربية) «بأن العرب لم يكونوا ليتحدوا في يوم من الأيام إلا بالإسلام ، ولولا الإسلام لبقوا شعوباً وقبائل يقتتلون في جزيرة العرب إلى يوم القيامة ، وبأسهم أبداً بينهم ..» [٤].

«فلما جاء الإسلام ووحد بينهم في الدين ، وقال الله تعالى : «إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا» [٥]، لم يلبثوا أن خرجوا من جزيرة العرب

---

١ - يقول شكيب : «أنه عرف تقسيم فرنسا وانجلترا لسورية وفلسطين سنة ١٩١٢م وأنه سيشرح هذا في كتاب - «البيان عما شهدته بالعيان» المرجع السابق ص١٠٦ .

٢ - الشورى ، ٢٠ أغسطس ١٩٢٥م .

٣ - د. محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص١٣٧ .

٤ - شكيب أرسلان ، مقدمة ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص١٦-١٧ .

٥ - من سورة آل عمران آية ١٠٣ .

بقوة هذا الإتحاد ، ففتحوا نصف العالم في ثمانين سنة ، ولم يقف في وجوههم شيء .

ولكن بعد أن بعد عهدهم بعهد النبوة وخلافة الراشدين ضعفت فيهم العقيدة التي كانت مدار العمل عند سلفهم ، وعادت فتجددت بينهم العصبيات الموروثة عن الجاهلية، فرجعوا يقتتلون على المضرية واليمنية في الإسلام ، كما كانوا يقتتلون قبل الإسلام ، ورجع بذلك زرعهم هشيما ، وبدرهم عرجوناً قديماً» [١].

فالأمير يؤمن أن العقيدة الإسلامية جعلت الإسلام هو العروة الوثقى ، وجعلت أخوته فوق كل رابطة [٢]، وبأن لا وحدة للعرب إلا بالإسلام ، وأن في الإبقاء على الأمة العربية مترابطة إبقاء على عمود الإسلام .

ولا يرى شكيب تعارضاً ولا تصادماً بين الوحدة العربية والأخوة الإسلامية ، بل هو فوق ذلك يرى أن الوحدة العربية تتضمن خيراً وقوة للشرقيين والمسلمين ، فيقول : «فأما اتحاد العرب والجامعة العربية فليس في ذلك إلا ما يزيد الشرقيين عموما والمسلمين خصوصاً قوة ومنعة» [٣].

وكان موقف الأمير شكيب أرسلان من فكرة إنشاء الجامعة العربية هو موقف الإسلاميين الذين بدأوا يعيدون التفكير بعد نهاية الحرب العالمية الأولى فيما آل إليه أمر المسلمين والعرب ، ورأوا أن البديل الوحيد من الجامعة الإسلامية بعد هزيمة تركيا وزوال الخلافة الإسلامية هو الجامعة العربية [٤].

ولكن لم يكن تحول الأمير شكيب أرسلان من الدعوة إلى الجامعة الإسلامية إلى الجامعة العربية إنقلابا ، بل كان نتيجة لتدرج منطقي فرضته أحداث عصره المتلاحقة ، فمع إلغاء الخلافة العثمانية انهارت الجامعة الإسلامية في وجهها السياسي ، وكان الأخطر من ذلك أن الشعوب الإسلامية بدت وكأنها أعرضت عن الجامعة الإسلامية ،

---

١ - المرجع السابق .

٢ - المرجع السابق .

٣ - مجلة الفتح ، ٩ رجب ١٣٥٠هـ (عن أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص١٤٦) .

٤ - د. محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ص٢١٢ .

وأخذت تبحث عن بديل آخر تظنه أكثر انسجاماً وتوافقاً مع شروط العصر ، وقد ساعد على نمو هذا الشعور ما بثته الدول الإستعمارية من الادعاء بأنها مستعدة لبحث موضوع استقلال الشعوب الإسلامية فيما لو تخلت عن فكرة الجامعة الإسلامية ، وقد لاحظ شكيب أرسلان تصاعد هذا الاتجاه في الفكر السياسي فقال في جملة ماذكره عن أسباب تخلى العالم الإسلامي عن معاونة الريف المغربي في جهاده ضد الأسبان : «فشوا الإعتقاد في تركيا ، ومصر ، وقسم من بلاد العرب ، بأن سياسة الإتحاد الإسلامي شيء مضر بالمسلمين ، حافز لأوروبا على التألب عليهم ، ومنعها استقلال ما يرجى استقلاله منهم حال كون الشعوب الاسلامية لو قامت بصائحة وطنية أو قومية خالية من صبغة الدين ، لما وجدت أوروبا بأساً من إعطائها أستقلالها ، فأما شعور أوروبا بكون الإسلام في وجهها متماسكا بعضه مع بعض ، فإنه مما يزيد تصميمها على سد كل طريق فرج في وجه أبنائه» (١).

ولقد عمت هذه الظاهرة الخطيرة أرجاء العالم الإسلامي ، كما يلاحظ شكيب : «وقد زاد هذه العقيدة رواجاً في تركيا ، فشو الدعوة التورانية التي معناها أن الأتراك ينبغي أن يكونوا تركا في الأول ثم مسلمين في التالي ، بل يذهب الغلاة من التورانية إلى محاربة الإسلام بكل الوسائل ، لأجل قلع نفوذه لمحو الصبغة العربية من بين الأتراك» (٢).

«كما زاد ذلك رواجا بمصر مراعاة جانب القبط الذين رأى بعض كبار الزعماء أن إدماجهم الحقيقي في الكتلة الوطنية المصرية ، متوقف على نفض اليد من الجامعة الإسلامية» (٣).

«ولا تخلو هذه النزعة من البلاد العربية أيضا ، لا سيما بين الحزب الذي انتقض على الأتراك أيام الحرب العامة ، والذي تحالف مع الانجليز وتمنى فوزهم في الحرب ،

---

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ٣ ص١٩٢-١٩٣ .

٢ - المرجع السابق .

٣ - المرجع السابق .

بحجة أن الذي ينبغي أن يكون نصب نظر العرب هو القومية العربية ، لا الجامعة الإسلامية ، وإن هذه الجامعة توجب نفور انكلترا التي كانت عند هذه الفئة مناط آمال العرب ... بخلاف مالو كانت النزعة عربية قومية ، فإن انكلترا ترحب بها ترحيباً(!) »[١].

وهكذا انتشرت الدعوات القومية الإنفصالية في أنحاء العالم الإسلامي ، ودفعت خط الجامعة الإسلامية إلى الظل لتتقدم عليه سياسة الإنفراد والنزعات العنصرية ، بينما ازداد شكيب أرسلان يقينا بأن «التكتل» هو السبيل الوحيد للنجاة ، وأن تلك الدعوات القومية الإنفصالية لابد أن تنتهي إلى القضاء على الشعوب الصغيرة أمام قوى الغرب الساحقة ، فرأى أنه «إذا كان هؤلاء لا يرون الاستمساك بجامعة إسلامية تشم منها رائحة الدين ، وتستوحش منها نزعاتهم العصرية ، فليعدلوا على الأقل إلى جامعة وطنية شرقية تشمل جميع الشرقيين من أية أمة كانوا إذ كان من سنن البقاء أن يتحد الضعفاء في وجه القوى» [٢].

وفي ظل هذه الوقائع بدأ التحول في سياسة الأمير شكيب إلى الجامعة الشرقية «فليست الجامعة الإسلامية هي العروة الوحيدة التي يقدرون أن يعتصموا بها ، بل الجامعة الشرقية إذا اتسقت على الوجه المطلوب في آسية كانت أوسع نطاقاً ولكن هذه الجامعة أيضا توجب التضامن مع سائر الشرقيين من كل أمة ومذهب ، ومما لا مشاحة فيه أنه لا أمل باستقلال الشرق ما دام مفكك الأجزاء» [٣].

ولكن الأمير شكيب كان يخلط بين فكرة الجامعة الشرقية والجامعة الإسلامية ، وظهرت المحاولة الأولى لإنشاء رابطة من هذا النوع بعد الحرب العالمية الأولى عندما اشترك شكيب أرسلان مع جماعة من دعاة الجامعة الإسلامية السابقين - ومنهم طلعت

---

١ - المرجع السابق .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ٤ ص١٦٠ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ٤ ص١٦٠ .

باشا ، الصدر الأعظم السابق ، المقيم في برلين [١] - في تشكيل النادي الشرقي في برلين [٢].

«وفي سنة ١٩٢٢م تألفت جمعية الرابطة الشرقية ، وحدد قانون الجمعية أغراضها بأنها «توثيق الروابط بين الأمم الشرقية بالتعاون الفكري بينها ، ودرس حضارة الشرق وما يناسب اقتباسه لنهضته من الحضارة الغربية ، وأن تتوسل إلى ذلك بالوسائل العلمية والاقتصادية ، وبث دعوتها باللسان والقلم ، وإيفاد بعض رجالها إلى البلاد الشرقية للتعارف والتآلف ، وإنشاء شعب فيها ، وعقد مؤتمرات دولية في جهات متعددة لتبادل الأفكار ... الخ» ، ومع أن الجمعية قد صرحت بأن غرضها غير سياسي ولا ديني ، وبأنها جامعة للشرقيين من كل الأديان ، فقد كان اتجاهها الإسلامي واضحا ، فهي ترسل مندوبا لمقابلة الخليفة في الأستانة ، وهي تبدأ نشاطها بالمساهمة في جمع التبرعات لترميم قبتي المسجد الأقصى والصخرة سنة ١٩٢٣م ، ثم تحيي في العام التالي ذكرى جمال الدين الأفغاني ، وتتدخل في محاولة التوسط بين الملك حسين ملك الحجاز وبين السعوديين لوقف القتال ، ثم تساعد بعد ذلك في جمع التبرعات لجرحى «الريفيين» في ثورة مراكش ، ولضحايا الاحتلال الفرنسي في «دمشق» ، وللدفاع عن عرب فلسطين الذين قدموا للمحاكمة سنة ١٩٢٩م لاشتراكهم في الثورة ضد استمرار هجرة اليهود ، وهكذا يتبين من عرض أعمال هذه الجمعية التي ظلت قائمة إلى سنة ١٩٣١م ، أن معظم نشاطها قد اتجه إلى البلاد الإسلامية ، والعربية منها خاصة»[٣].

وتلا ظهور (الرابطة الشرقية) ظهور (جمعية الشبان المسلمين) في آخر سنة ١٩٢٧م ، وقد انصرف معظم نشاطها الإسلامي - كسابقتها - إلى العالم العربي ، فأسست لها فروع في فلسطين وفي سورية وفي العراق [٤].

---

١ - وذلك قبيل اغتياله في ١٩٢١/٣/١٥م .

٢ - د. محمد شفيق شبا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص١٩٠ .

٣ - د. محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، جـ٢ ص١٢٨ .

٤ - المرجع السابق ص١٢٩ .

وشكيب كان يعلق أملا كبيراً على جمعيات الشبان المسلمين ، ويرى أن المسلمين نهضوا نهضة مذكورة بعد الحرب العالمية الأولى ، ونفضوا غبار الخمول عن نفوسهم ، ومن أحسن ما قاموا به إنشاء جمعيات الشبان المسلمين في مصر وفلسطين وسورية والعراق [١].

وعندما اجتمع الزعماء العرب حين اجتمعوا في القاهرة ، وشكلوا اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني سنة ١٩٢٢م ، قرروا تأليف وفد عربي يدافع عن سورية وفلسطين ، ويسعى لتحرير هذين القطرين من براثن الإستعمار ، فيبسط قضيتهما أمام الرأي العالمي ، ويتابع المحاماة عن حقوقهما والعمل لاستقلالهما في جمعية الأمم بجنيف ، ولم يجدوا بداً من الاستنجاد بشكيب والإفادة من ثقافته ورجولته وإخلاصه ونضاله ، فانتخبوه سكرتيراً أول الوفد ، وأرسلوا إليه برقية إلى برلين تدعوه إلى تأليف الوفد المذكور .

وسافر شكيب من برلين إلى جنيف سنة ١٩٢٥م للقيام بهذه المهمة المقدسة الجديدة بتكليف من قومه [٢] ، وبتاريخ ١٥ سبتمبر يقدم إلى عصبة الأمم نداء مطولاً بالفرنسية ، يطالب فيه بسرعة الإعتراف باستقلال سورية ولبنان وفلسطين وبالسلطان القومي لهذه الأقطار الثلاثة ، وبحق هذه البلدان في أن يرتبط بعضها مع بعض بحلف بينها ، ويطالب بإلغاء نظام الإنتداب ، وبجلاء القوات الأجنبية عن سورية ولبنان وفلسطين ، وادخال سورية ولبنان الكبير في عصبة الأمم مع إعلان استقلالهما التام الناجز ... الخ [٣].

وهكذا نزل الأمير شكيب إلى ساحة العمل السياسي العربي ، وكما اتسمت الجامعة الإسلامية بالطابع النضالي المعادي للغزوة الأوروبية الصليبية السياسية ، كذلك اتسمت الفكرة العربية الصاعدة بمواجهة الاستعمار الأوروبي العسكري/السياسي/الاقتصادي .

---

١ - أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، (مرجع سابق) ، ص٢٢٨ .

٢ - د. سامي الدهان ، الأمير شكيب أرسلان حياته وآثاره ، ص٨٤ .

٣ - شكيب أرسلان ، الشورى ، ١٩٢٥/١١/٥م .

ولنظرة شكيب وفراسته الصادقة في الأمور السياسية الخطيرة ، حتى أنه طالما تنبأ عن أمور قبل وقوعها فجاءت كما حدث [1] ، أخذ يدعو العرب إلى الإتحاد وهو في أثناء تكراره لدعوته ينذر ويحذر من مستقبل الأمة العربية إن بقيت مفككة فيقول سنة ١٩٣١م :

«الوقت مخيف جداً ، والمستقبل مظلم حالك الظلام ، والحرب الأوروبية مهما تأخرت فهي آتية لاريب فيها ، وقد ينشأ عنها من تقاسم بلدان الضعفاء ومن المعاوضات والمبادلات ما نشأ في الحرب الماضية .

فالبلدان العربية تحت الخطر ، بل الخطر الشديد ، إني لأعلن العرب هذه الحقيقة من الآن ، وليس أمامهم لدرء الخطر إلا الإتحاد ظاهراً وباطناً ، أنه إذا نشبت حرب أوروبية تفلت كل من قيده ، وصار كل قوى يستعمل قواه ، والحق بعد ذلك للغالب ، وقد ينتهي الأمر بالإتفاق ، ولكن على ظهر الضعيف» [2].

ولقد كان شكيب فيما يقول الرواة أول من دعا إلى إنشاء (الجامعة العربية) عقب الحرب العالمية الأولى [3].

يقول الأستاذ عبد العزيز عزت عن شكيب : «وهو أول من نادى عن عقيدة وإيمان بتكوين جامعة عربية تعمل على تضامن العرب كافة واسعادهم واستقلالهم ، وكان يقول ان شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم التي تسوي بين المسلم وغير المسلم في بلاد الإسلام : (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) تجعل مواطنينا غير المسلمين تواقين للإستقلال معنا ، وتاريخ الدول الإسلامية أعظم شاهد على هذه المساواة في جميع الحقوق وتمام الحرية» [4].

---

١ - يقول د. زكي علي في هذا المقام : «الأمير شكيب أرسلان كثيرا ما تكهن في الأمور السياسية الخطيرة قبل وقوعها ، حتى إذا انحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل جاءت الحوادث مصداقا لتكهنه ، دليلا على صواب حكمه ، ولا غرو أن هذا يعزى إلى سلامة فطرته وأصالة رأيه .. فوق ماأمتاز به من الخبرة وبعد النظر والتجربة خلال عشرات السنين من حياته السياسية» شكيب أرسلان داعية العروبة (مرجع سابق) ص٥٥ .

٢ - الفتح ، عدد ٤ شوال سنة ١٣٥٠هـ .

٣ - أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، (مرجع سابق) ، ص١٢٢ .

٤ - المرجع السابق ، ص١٢٣ .

غير أن (الجامعة العربية) - كما ذكرنا - لم تكن نقيضا للاسلام في فكر شكيب، أو بديلا عن (الجامعة الإسلامية) كمشروع سياسي ، فالكثير من عناصر الجامعة الإسلامية ومكوناتها قد وجدت طريقها إلى فكرة العروبة ، كما استلهمت (الجامعة الإسلامية) في ضرورة الوحدة ، وحدة المشرقيين ووحدة المستضعفين ، واستلهمت في ذلك كله طابع الجامعة الإسلامية النضالي المعادي والمقاوم للغزوة الغربية الاستعمارية ، فالجامعة العربية اعتبرت في فكر الأمير أكثر توافقا مع وقائع المرحلة وتحدياتها ، وأقرب نفعا في تأمين مستلزمات الوحدة والنضال .

«وهكذا لم يتردد عرب الجامعة الإسلامية ، ولم يقعدهم انكفاء الاسلام السياسي، بل انخرط الكثير من قادتهم في معركة دفع الاستعمار الأوروبي عن البلاد العربية ، وبات أكثرهم أعضاء نشطين في حركة المقاومة العربية الآخذة بالإنتشار والتصاعد ، ونكتفي بذكر بعض هؤلاء أمثال الحاج أمين الحسيني ، علال الفاسي ، أحمد زكي ، ساطع الحصري وغيرهم ، كان شكيب أرسلان بين أكثر هؤلاء نشاطاً واندفاعاً وإقداماً في خدمة القضية العربية الاستقلالية» [١].

لقد رأى الأمير شكيب ومعه فريق من الإسلاميين أن قوة (الجامعة العربية) مستمدة من أنها جزء لا يتجزأ من (الجامعة الإسلامية) ، ومن النماذج القوية التي تعبر عن هذا التصور الإسلامي للجامعة العربية ما نشر في صحيفة السياسة تحت عنوان «الوحدة العربية - وهل هي خيال ؟» .

«لم تكن الوحدة العربية فكرة اليوم ، فهي ربيبة الدعوة المباركة للجامعة الإسلامية الكبرى ، أو قل إنها جزء لا يتجزأ منها ، بل لا نكون مغالين إذا اعتبرناها حجر الزاوية في بناء تلك الجامعة العتيدة التي نعتقد أن عناصر تكوينها من روحية وثقافية وحضارة وتقاليد هي العناصر نفسها ، مصقولة بمبرد التطور ، التي يقوم عليها نشدان الوحدة العربية» [٢].

---

١ - د. محمد شفيق شبا ، شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي ، (مرجع سابق) ، ص١٩٥ .

٢ - ملحق السياسة الأدبي عدد ٦ رجب ١٣٥١ - ٥ نوفمبر ١٩٣٢ لعيسى بندك - عن الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، لمحمد محمد حسين ، جـ٢ ص١٨٠ ، (مرجع سابق) .

وشكيب أرسلان يرى أن تكون الوحدة اتحاداً عسكرياً واقتصادياً وسياسيا يضمن البقاء للجميع حتى لا تقف مشكلة الإتحاد الإداري عقبة في طريق تنفيذ مشروعه ، فالوحدة العربية لا توجب «تمام اندماج مملكة بأخرى ، بل هي ممكنة بسهولة مع إبقاء كل من العراق وسوريا والمملكة العربية السعودية ممالك مستقلة بإدارتها الداخلية»[١].

ويتحدث عن الاتحاد العربي بين الدول الأربع : «الشام والعراق ومملكة ابن سعود ومملكة اليمن» ثم يذكر أنه عند اتحاد جميع هذه البلدان يبلغ العرب الذين فيها من العدد ثلاثة وعشرين مليوناً من الأنفس» فإذا وجدت مصر في شرقيها ثلاثة وعشرين مليوناً عربياً متحالفين تحالفا عسكريا ، اقتصاديا ، اجتماعيا ، متحدين كتلة واحدة في وجه كل مناوئ ، فلا نظن أنها تتردد في أن ترتبط مع هذه الأمة العربية الكبيرة ارتباطا متينا وثيقا عسكريا واقتصاديا ، وتصير عندنا بذلك (جبهة شرقية) هائلة يربو عدد أهلها على خمسة وأربعين مليون نسمة »[٢].

ويلاحظ أنه استعمل كلمة «جبهة شرقية» مما يدل على تواصل الخط السياسي في فكره الذي بدأه من الجامعة الاسلامية إلى الرابطة الشرقية إلى الجامعة العربية استجابة لجملة الحقائق التاريخية والسياسية التي استجدت مع نهاية الحرب العالمية الأولى ، ودون أن يكون في ذلك التحول تراجعاً أو انقلاباً .

ويقرر الأمير شكيب في مواقف مختلفة الروابط التي تربط شعوب العربية من العقيدة الدينية واللغوية والجوار وتشابه الظروف الإجتماعية والحوادث التاريخية والمطامح السياسية وأهداف الرقي المدني والاقتصادي ، ويذهب بعد ذلك إلى تأكيد إيمانه بتحقق تلك الوحدة العربية ، فيقول : «إن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة ، مهما عارض في ذلك اللئام من أعدائها ، والمتفلسفون من أبنائها ، وأن هذه الوحدة آتية لا ريب فيها »[٣].

---

١ - من محاضرة لشكيب عن (الوحدة العربية) في النادي العربي بدمشق يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٣٧ عن أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام (مرجع سابق) ص١١٥ .

٢ - المرجع السابق ص١١٦ ، ويلاحظ أنه كان يقول هذا في سنة ١٩٣٧م .

٣ - شكيب أرسلان ، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، ص٢٠٧ .

أما تصور الأمير للمستقبل السياسي للجامعة العربية فيقوم على أساس أن «العرب أمة كاملة ، أي أن لها جميع العناصر التي يقتضيها كيان الأمم من الوجهة السياسية والإجتماعية فلها عرق واحد ولسان واحد وأكثرية دين واحد ، وتاريخ واحد كما أن لها مصالح واحدة ، ومنافع واحدة وآمالا واحدة ، ولكن الذي فت في عضد هذه الأمة ، وأقصاها عن السير في مواكب المدنية والرقي هو تفكك حلقاتها واستعمار الأجنبي لها » [١].

ويحدد الأمير شكيب دوره وهدفه من (الجامعة العربية) فيقول : «أنا جندي من جنودها له ثلاثة أهداف جلية وواضحة تمام الوضوح .

الأول هو الاتحاد ، والثاني هو التحرر ، والثالث هو السير في مواكب النهضة والعلم والبعث [٢].

ومع ذلك كله ، فلم يكن طريق الدعوة إلى (الجامعة العربية) ميسراً ولا ممهداً ، فقد كانت تعترضه عقبات كثيرة ، ولم يكن الاحتلال الأجنبي الذي قطع أوصال بلاد العرب هو شر هذه العقبات وأخطرها [٣] فهناك المسيحيون الذين تخوفوا من أن تتكشف الوحدة العربية عن شكل جديد من أشكال التسلط الإسلامي [٤]، وقد يكون لهذا النفر من المسيحيين عذرهم فيما ذهبوا إليه ، فقد لقي هؤلاء من عنت الحكام ومن فساد الإدارة في أواخر الدولة العثمانية ما نفرهم من الارتباط بالحكم الإسلامي جملة[٥] ودعاهم إلى تفضيل الاستعمار الأوروبي (الأفرنجي) أيا كان وبأية صورة احتل البلاد على ابن وطنهم ، وأحياناً على ابن جلدتهم المشارك لهم في السراء والضراء ، بحجة كونهم مختلفين مع ابن وطنهم في الدين .

وقد أوضح الأمير شكيب أرسلان عقم هذه السياسة وسقمها ، ومخالفتها للعقل

---

١ - محمد علي الطاهر ، ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، ص٢٤٢ .

٢ - المرجع السابق .

٣ - د. محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية (مرجع سابق) ص١٣٦ .

٤ - صالح بن عبد الله العبود ، فكرة القومية العربية في ضوء الإسلام ص١٧٦ .

٥ - د. محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، ص٢١٣ .

والكرامة وللمصلحة في مقالة تحت عنوان «العروبة جامعة كلية» نشرت في «عروة الإتحاد» في أيلول ١٩٤٠م ، ثم أعاد نشرها كاملة الشيخ أحمد الشرباصي [١]، تحدث فيها الأمير شكيب عن الروابط التي تجمع بين المسلمين والمسيحيين ، وأهمها رابطة الدم والأصل ، ثم المصالح ، واللغة ، والوطن ، وضرب الأمثلة ، وبين كيف يرجع نصارى العرب إلى أصول عربية ، كما تحدث عن تأثير العقيدة الدينية ، وأنها لا تنفي رابطة الدم ، وبين أنه لا تعارض بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية ، وأن الحروب الصليبية هي التي أوجدت العداوة بين المسلمين والمسيحيين ، ويشير إلى اتحاد المسلمين والأقباط في مصر ، ويجعل ذلك قدوة لسورية [٢].

ولنا أن نقف هنا عند ثلاث مسائل أولاها شكيب كبير عنايته وتعد ذروة تصوره السياسي حول (الجامعة العربية) :

الأولى : يرى شكيب أن رابطة الدم من أقوى الروابط الجامعة بين الشعوب ، وأن رابطة العقيدة الدينية لا تنفي رابطة الدم ، يقول الأمير شكيب : «إن العرب سواء كانوا مسلمين أو نصارى هم عرب ، لا يقدرون أن يتبرأوا من أصلهم ، ولا أن ينسلخوا عن أرومتهم العربية ولا نزاع أن رابطة الدم كانت ولا تزال من أقوى الروابط الجامعة بين الشعوب ، ولا نزاع أيضا أن رابطة العقيدة الدينية هي ذات تأثير عميق في اجتماع الشعوب وافتراقها ، ولكنها لا تنفي رابطة الدم ، ولا تمحوها من الوجود ، لاسيما إذا كانت رابطة الدم معززة برابطة الجوار ومقتضيات المصلحة المادية المشتركة» [٣].

ثم يقرر الأمير حقيقة هامة ثبتت في وعيه السياسي بفعل التجربة الغنية التي خبرها أمدا طويلا : «لقد أثبتت التجربة أن رابطة الدين على أهميتها لم تكن هي كل شيء ، وأن رابطة اللغة ورابطة الدم كان لهما في جانبها مكان من البال لا يقل عنها» [٤].

---

١ - في كتابه : «شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام» .

٢ - شكيب أرسلان «العروبة جامعة كلية» عن «داعية العروبة والاسلام» (مرجع سابق) .

٣ - المرجع نفسه ص١٦٢

٤ - المرجع نفسه

وينقل الأمير شكيب أرسلان عن الفيلسوف «رينان» الفرنسي : أن أقوى جامعة بين الشعوب هي «جامعة الإرادة» في الإجتماع [١] ، ثم يعلق شكيب بقوله : «ونحن أولاء نجد بين المسلمين والمسيحيين في الشرق لا جامعة واحدة بل جامعات كثيرة كلية ، منها وحدة الأصل ، وليس ذلك بالأمر الذي لا تبالي به الشعوب .. وزد على هذه وحدة المصلحة الراهنة المشتركة في الحياة الدنيا ، وهي لا تقل شأناً عن الوحدتين السابقتين [٢].

ويرد الأمير الإعتراض بأن في الشعوب العربية أنساباً متباينة وأقواماً لا يجري فيها الدم العربي الصراح ، فيقول : «وإن كنا نريد البحث والتدقيق فأية أمة في العالم تظهر أنها من أصل واحد اليوم لم تكن مركبة في الأصل من عناصر شتى ؟ [٣].

فالنسب العرقي النقي وهم لا وجود له في أمم الأرض جميعاً ، ومثل هذا لا تخلو منه أمة ، حتى أن العرب أنفسهم - وإن كانوا جميعاً ساميين - ليسوا من أصل واحد ، فمنهم العرب البائدة ، مثل عاد وثمود وطسم وجديس ، ومنهم العرب العاربة ، وهم سلالة قحطان ، ومنهم العرب المستعربة ، وهم سلالة ابراهيم الخليل عليه السلام ، ومع ذلك فإن العرب أمة واحدة ، لا يقدح في وحدة أصلها إلا شافيء أو حاسد أو مشاق معاند [٤].

«فإن كان في الأمة العربية اليوم أقوام هم من أصل آرامي أو كنعاني أو نبطي ، أو غير ذلك ، فهذا لا يقدح في كونهم من جملة الأمة العربية الكبيرة البالغة سبعين مليون نسمة ، اتحدوا في الأصل السامي ، ثم اتحدوا في اللغة العربية ، وحسبك باللغة العربية عنواناً على العروبة» [٥].

المسألة الثانية : وهي ما أشار إليها شكيب في النص السابق ، بقوله «اللغة

---

١ - المرجع نفسه
٢ - المرجع السابق
٣ - المرجع نفسه
٤ - المرجع نفسه
٥ - المرجع نفسه

عنوان على العروبة» ، فشكيب أرسلان يرى أن عامل وحدة اللغة سابق على غيره من العوامل، وأن الأمة تتكون أساساً بهذا العامل مهما تعددت الأصول ، وتباعدت الأقاليم، وتباينت التقاليد والعوائد .

وبهذا التصور اللغوي للأمة تصبح اللغة أهم عوامل التوحيد القومي «وليست اللغة العربية وحدها هي (البوتقة) التي ذابت فيها قبائل شتي فصيرتها جسما وحدا وروحا واحدة ، بل كل لغة من اللغات الكبرى كالانكليزية والألمانية والإفرنسية والطليانية والروسية قد كانت (بوتقة) ذابت فيها عناصر مختلفة الأصل فصارت عنصراً واحداً»[١].

ويشير الأمير إلى الترابط الوجداني الذي تحدثه اللغة في نفوس المجتمعين عليها حتى أنه قلما تضلع إنسان في لغة قوم إلا أحب أولئك القوم ، ولهذا نجد أكثر علماء العربية من النصارى - سواء كانت أصولهم عربية بحتة ، أم لم تكن - يحبون العرب ويفتخرون بالعروبة ، وقد كان من الفرس ومن الترك علماء بالعربية جعلهم اتقانهم للعربية من أنصار العروبة [٢].

وهنا يلمح الأمير عاملاً هاماً من عوامل تفكك عرى (الجامعة الإسلامية) ، وهو إهمال تدريس اللغة العربية - بعد أن كانت عامل توحد للشعوب الإسلامية - في تركية «وغلب على ناشئتها تعلم اللغات الأوروبية ، وإهمال اللغة العربية التي كانت لغة العلم عندهم من قبل [٣] ضعف ميل الأتراك إلى العرب ، بل انقلب إلى النفور ، وانتهى بالعداوة ..وما نقوله عن الترك في هذا الباب نقدر أن نقوله عن الإيرانيين [٤].

المسألة الثالثة :

وهي تأكيد الأمير شكيب على عدم وجود تعارض بين الوحدة الإسلامية والوحدة

---

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص١٧١ .

٢ - المرجع السابق ، ص١٧٢ .

٣ - وفي هذا يقول جمال الدين الأفغاني : « ... أما الأتراك فقد أهملوا أمراً عظيماً وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح رحمة الله عليه وأحب أن يعمل بها السلطان سليم وهي قبول اللسان العربي لسان الدولة» محمد باشا المخزومي ، خاطرات جمال الدين الأفغاني ، ص٨٨.

٤ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص١٧٢ .

العربية ، هي مسألة دقيقة ناقشها الأمير شكيب أرسلان بعناية المفكر الحريص على التوفيق بين أبناء الوطن الواحد ، وقد نختلف معه في بعض الرأي لكننا نتفق معه في الإطار العام وفي الغاية والهدف .

بداية يقرر شكيب أرسلان أن الدين الإسلامي جعل العقيدة الإسلامية فوق كل شيء ، ونهى الذين آمنوا عن أن يتولوا الذين لم يؤمنوا ، ولو كان هؤلاء من ذوي قرباهم، أو كانوا أصولهم أو فروعهم [١].

ويستشهد بقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين» [٢]

ثم يرد الأمير شكيب أرسلان على المعارضين لفكرة الربط بين العروبة والإسلام ظناً منهم أن في الجمع بينهما جمع بين نقيضين ، فإذا كانت «الوحدة الإسلامية هي المقدمة على كل وحدة أخرى من النسب واللغة والجوار والمصالح المشتركة ، فأية فائدة إذن أن يتحد نصارى العرب مع المسلمين منهم ؟» [٣] ويرى شكيب أن الجواب عن ذلك سهل إلى الغاية ، وذلك من وجوه :

الأول : أنه إذا كان القرآن جعل الرابطة الإسلامية فوق كل شيء فإنه جعل الحق في المعاملات فوق الرابطة الإسلامية حتى أنه سوى في الحق بين المسلمين وغير المسلمين ، ونهى عن أن تكون العداوة الدينية سببا لحرمان الأعداء من حقوقهم .

فقال تعالى في سورة المائدة : «ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله

١- شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام (مرجع سابق) ص١٧٤ .

٢ - سورة التوبة آية ٢٣-٢٤ .

٣ - المرجع السابق ص١٧٥ .

إن الله شديد العقاب» آية : ٢

وقال تعالى في السورة نفسها : «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون» آية : ٨ [١].

وهكذا يقوم الأمير بإثبات الغاية المقصودة من الشريعة الإسلامية وهي إقامة (العدل) بين الناس ، ولهذا أمر الله المسلمين أن يقوموا بالقسط ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، وأمر بالعدل ولو مع العدو ، وجعل العدل في الحكم وفي القول مفروضاً في كتاب الله فانقطع بذلك خوف غير المسلمين من الإجتماع مع المسلمين في دولة إسلامية تحكم بشريعة الإسلام .

«فإذا كان الشرع الإسلامي لا يبيح لمسلم أن يجور على مسيحي ، أو على أي كان من غير المسلمين ، ولو كان عدوا له وللإسلام عموما ، وكان يوجب أن يوفر لهذا العدو حقه غير منقوص ، فأي مكان بعد هذا للخوف من الإجتماع مع المسلم في حكومة واحدة ؟ وأي محذور من جعل القرآن رابطة الدين فوق كل رابطة ، وهي لا تقدر أن تبطل حقا ، ولا أن تمحق باطلا في معاملات المسلمين مع غير المسلمين ؟» [٢].

أما الوجه الثاني الذي يدعو إلى ترابط المسلمين بالمسيحيين في داخل (الجامعة العربية) فهو أن الشرع الاسلامي قد فرق بين المشركين وبين أهل الكتاب ، الذين منهم اليهود والنصارى ، فإن هؤلاء بالنظر إلى عقيدتهم بالخالق تعالى ينظر إليهم الإسلام بغير النظر الذي ينظر به إلى الملحدين والمعطلين والمشركين [٣] ، فيقول الله تعالى : «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» [٤].

---

١ - المرجع نفسه .
٢ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص١٧٦ .
٣ - المرجع نفسه .
٤ - سورة المائدة آية ٦٩ .

ويعتقد الأمير شكيب أن الله تعالى جعل باب الرحمة مفتوحاً لأهل الكتاب ، ويستشهد على اعتقاده هذا بقول الله تعالى في آخر سورة المائدة على لسان سيدنا عيسى :[١] «ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ، أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» [٢].

وهناك وجه ثالث لتقارب المسيحيين مع المسلمين ، يرى الأمير أن من لم يتأمل القرآن العظيم لا ينتبه إليه ، وهو أن الله سبحانه وتعالى قد جعل اليهود والمشركين أعداء للمسلمين من دون النصارى ، وقد ورد هذا بالنص الصريح [٣] في قول الله تعالى : «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين» [٤].

ويؤكد الأمير شكيب أن المسلمين في صدر الإسلام وما بعده كانوا لا يعتبرون النصارى أعداء لهم ، وكان ذلك عقيدة عندهم مدة قرون متعددة ، «ولكن العداوة بين المسلمين والمسيحيين لم تبدأ في الشرق إلا بعد أن فكر الغرب في الإستيلاء على الشرق ، وزحفت الأمم الأوروبية كلها على المشرق ، تريد القضاء على دولة الإسلام ، بحجة استنقاذ بيت المقدس .. ولم تزل أوروبة تنفخ في هذا النفير من ذلك الوقت وكلما هدأت حركة العداء بين المسيحيين والمسلمين في الشرق جاءت الدول الأوروبية فأشعلت نارها» [٥].

ما يفرق إذاً بين العربي المسلم والعربي المسيحي إنما هي إحن داخلية وغريبة

---

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ص١٧٦ .

٢ - سورة المائدة آية ١١٧-١١٨ .

٣ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص١٧٧ .

٤ - سورة المائدة ، آية ٨٢-٨٣ .

٥ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص١٧٩-١٨٣ .

تعود إلى الإرث الصليبي قديما والمد الأوروبي الاستعماري الجديد [١]، ولكن (الجامعة العربية) الناظمة لشمل المسلمين والمسيحيين من العرب «هي أشد قوة وأحصف مريرة بالنظر إلى وحدة الدم واللغة والمصلحة من روابط سائر الأمم الدامجة بعضها مع بعض» [٢]، وهي أيضا ثابتة بالشريعة الإسلامية كما تقدم.

والأمير شكيب أرسلان لا يرى في اختلاف العقائد الدينية سببا لاختلاف العقائد السياسية، وبناء على ذلك فالعروبة تمثل في فكر الأمير كتلة سياسية في مجال الصراع العالمي الذي لم يعد فيه مكان للكتل الصغيرة لضعف إمكانياتها، ولعجزها عن الدفاع عن نفسها أمام الطامعين، وعليها في سبيل هدفها أن تتغلب على أسباب الفرقة بكل أشكالها سواء بين أبناء الأديان المختلفة أو بين أبناء الدين الواحد، يقول شكيب:

«ولنا الأمل في أن تكون العروبة سواء كانت من جهة الدم أو من جهة اللغة هي الجامعة الكلية، لا بين المسلم والمسيحي فقط، بل بين أبناء الفرق الإسلامية من سنة وشيعة ودروز وعلويين واسماعيليين، وبين الفرق المسيحية بعضها من بعض من أتباع الكنيسة الشرقية وأتباع الكنيسة الغربية» [٣].

ولكن تبقى العروبة في فكر شكيب أرسلان (عروبة إسلامية)، فظروف نشأتها في ظل دولة إسلامية جامعة للشمل تختلف عن ظروفها مع تفرق الشمل واختلاف الكلمة، فإذا كانت هذه الدعوة قد فتت بالأمس في عضد (الجامعة الإسلامية)، فهي في هذه المرحلة - إذا صححت مسيرتها - الخطوة الأولى في الطريق إلى هذه الجامعة [٤].

«فالعرب هم أقرب الناس بين المسلمين إلى تحقيق وحدة جامعة بحكم اللغة المشتركة التي تربط بعضهم ببعض من ناحية، والتي تربطهم بأصول الدين الإسلامي من

---

١ - د. محمد شفيق شبا، شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي، (مرجع سابق)، ص٢١٩.

٢ - شكيب أرسلان، (العروبة جامعة كلية)، داعية العروبة والاسلام (مرجع سابق)، ص١٨٦.

٣ - شكيب أرسلان، المرجع السابق، ص١٨٧.

٤ - د. محمد محمد حسين، الاسلام والحضارة الغربية (مرجع سابق) ص٢٢٠-٢٢١.

ناحية أخرى ، وبحكم تجمع دولهم وتلاصقها واتفاق العادات أو تقاربها على الأقل مهيؤون لأن يكونوا نواة إسلامية صلبة تشع على العالم الإسلامي من ثقافة الإسلام»[١].

(فالجامعة العربية) هي نقطة البدء التي لا بديل منها في هذه المسيرة الطويلة نحو (جامعة إسلامية) لا سبيل إليها الآن [٢].

لذلك فرح شكيب أرسلان لما تألفت (الجامعة العربية) وحياها ، وتمنى لها التوفيق ، ومن أقواله الأخيرة : «إن الجامعة لن تستطيع تنفيذ مبادئها والاطمئنان إلى مستقبلها دون أن يكون لها جيش مرهوب الجانب تستطيع أن تشترك فيه جميع دول (الجامعة العربية)» [٣].

وينقل «محمد علي الطاهر» مدى فرح الأمير شكيب وقد عاد إلى وطنه سنة ١٩٤٦م بعدما تحقق حلمه بتأسيس الجامعة العربية [٤]، كما ينقل تأبين الشيخ بشارة الخوري للأمير بعيد وفاته في بيروت «.. فرحت للبنان وسورية ولجميع البلاد العربية إذ وجدتها متآخية في جامعة سعيت لها طول حياتك ، فتحققت بها أمانيك ومساعيك»[٥].

وأحسن ما قيل في تقدير سعي الأمير شكيب أرسلان وجهاده في سبيل وحدة العرب وجمع كلمتهم ، ما كتبه رشيد رضا عنه عندما لبى شكيب أرسلان دعوة الحاج أمين الحسيني لإصلاح ذات البين بين إمام اليمن وابن سعود ولوقف الحرب اليمنية الحجازية فقال رشيد رضا : «... واستجاب له (الحاج أمين الحسيني مفتي القدس) من أوروبا أكبر كتاب الأمة العربية وأمير البيان فيها الداعي إلى وحدتها المحامي عن حقيقتها المدافع عن ملتها ورئيس الوفد السوري الفلسطيني في جنيف ، مثابة سياسة

١/٢ - المرجع نفسه .

٣ - د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان ، حياته وآثاره ، ص٩٩ (مرجع سابق) .

٤ - أصبحت (الجامعة العربية) حقيقة واقعة في ٢٢ مارس ١٩٤٥م حين اشترك في توقيع ميثاقها سبع دول عربية ، هي : مصر والمملكة العربية السعودية وسورية ولبنان وشرق الأردن والعراق واليمن . (الاتجاهات الوطنية ج٢ ص١٨٩) .

٥ - محمد علي الطاهر ، ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، ص٣٤ .

الأمم كلها . الأمير شكيب أرسلان» [١].

- تعليق حول تحول الأمير من (الجامعة الإسلامية) إلى (الجامعة العربية) :

لم يجانب الأمير شكيب أرسلان الصواب عندما توجه بكل طاقته نحو (الجامعة العربية) . فما العرب إلا مسلمون «بل هم جرثومة الإسلام وأصله الأول وقلبه النابض ، فإذا عجزنا عن تقديم جامعتهم وحملها على الإسلام ، فنحن أعجز عن تقويم جامعة المسلمين وحملها عليه» [٢] ، وإذا كان «فريق من الإسلاميين ظلوا متأثرين بالظروف التي أحاطت نشأة الجامعة العربية حين كانت فكرة ومبدأ ، وبعد أن أصبحت مؤسسة سياسية ، وظلت في تقديرهم فرعاً من الإتجاه القومي الوافد على بلاد المسلمين من أوروبا ، والذي كان سببا في تمزق الجامعة الإسلامية» [٣] ، فقد أدى إعراضهم عنها إلى ترك الميدان مفتوحا «لتسلل زعامات غير إسلامية أقحمت عليها مذاهب ومناهج في السياسة والاقتصاد تناقض الإسلام» [٤].

---

١ - شكيب أرسلان ، السيد رشيد رضا ، أو إخاء أربعين عاما ، ص١٨٩ .

٢/٣/٤ - د. محمد محمد حسين ، أزمة العصر ، ص٥٤-٥٥ .

آراء الأمير شكيب أرسلان في (التربية)

آراء الأمير شكيب أرسلان في

(التربية)

إن الضعف والاضمحلال اللذين أصابا الدولة العثمانية (دولة الخلافة) لم يصدرا عن الخلافة نفسها - كما يقول الذين لا يدققون في أسرار الأمور أو الذين في قلوبهم مرض - وإنما كان مبعثهما - في رأي شكيب - حال المسلمين في العالم الإسلامي ، «فقد كان العالم الإسلامي قبل الحرب العامة معتمدا على الدولة العثمانية يراها كل شيء ، ويطلب منها كل شيء ويظن نفسه مستريحا بوجودها» [١] وكان المسلم لايفكر ولا يريد أن يفكر في مسائل الإسلام العامة اعتقاداً منه بأن هناك دولة كبرى وخلافة هي المرجع لكل هذا وإنها ناظرة إلى كل هذا .

«وصار هذا الإعتقاد وسيلة للمسلم أن يكسل ويهمل ويقول لنفسه : مالي وللإهتمام بما يهتم به من هو أولى وأقدر مني ؟ وربما قال : بما لا يعنيني» [٢].

«فهذا الاعتماد أضر الخلافة وأضر العالم الإسلامي نفسه ، أضر الخلافة لأنه حملها كل شيء من القلبين إلى المغرب وألقى كل المهام عليها فعجزت ورزحت تحت الحمل حتى عجزت عن حفظ ما هو بيدها فضلا عن البعيد .

وأضر نفسه لأنه بتخيل أن كل المهام قائمة بها الخلافة في استانبول أهمل كل سعي وكل عمل وصار ينظر إلى نفسه كقاصر ليس له أن يهتم بشيء مع وجود وليه فصارت الدولة ضعيفة وصار العالم الإسلامي ضعيفا وصار ضعف كل منهما يزيد ضعف الآخر» [٣].

وهكذا يلقي الأمير شكيب بتبعة ضياع الخلافة على عاتق المسلمين أنفسهم ، وبالتالي فقدانهم لكيانهم السياسي ، فماذا تفعل الدولة إذا كان أفرادها لا يقومون بواجبهم في نصرتها والعمل على سلامتها ورقيها «فصارت الحال أشبه بجسم جميع

---

١ ٤/٣/٢/١ - رسالة مطولة أرسلها «شكيب أرسلان» من لوزان إلى «أكرم زعيتر» سنة ١٩٣١م نشرت في سلسلة مقالات بعنوان «ذكريات مع الأمير شكيب أرسلان» بقلم أكرم زعيتر بجريدة (الشرق الأوسط) ١٩٨٦/٣/٢٢م وما بعده.

أعضائه شلاء أو مصابة ، فالرأس مهما كان مفكراً لايستطيع مع ضعف الجسم كله شيئا » .

«والحقيقة لو كانت أقسام العالم الإسلامي كلها ملأى حياة لكانت الدولة العثمانية أقوى دول الأرض إذ كانت رأساً لثلاثمائة وخمسين مليون آدمي ، كل واحد منهم قائم بوظيفته في نصرتها ولكنها كانت رأسا لثلاثمائة وخمسين مليوناً منهم ٣٠٠ مليون تقريبا في حكم القاصرين ، فماذا يفيد القاصرون مهما كثروا » [١].

والآن وبعد إلغاء الخلافة وانفراط عقد الأمة الإسلامية ، يحدد الأمير شكيب مذهبه في الطريق الواجب اتباعها لتحرير الإسلام وإنهاضه ، فيدعو المفكرين والمهتمين بمستقبل الإسلام إلى الإتعاظ بعبر التاريخ ودروس الأحداث الجارية ، وقد أثبتت الوقائع وشهد التاريخ بأن الفرد المسلم هو الأساس الذي يقوم عليه بناء الدولة الإسلامية، «فالآن يجب علينا أن نؤسس من تحت .. يجب أن نربي الفرد الإسلامي فنخرجه فرداً عاملاً قائماً بالواجب عليه سواء كان زارعاً أو صانعاً أو تاجراً أو حاكماً أو معلماً أو مصلياً ... الخ ومن مجموع الأفراد القائمين بما عليهم حق القيام يتألف البلد الزاهر الراقي .

ومن مجموع البلدان الزاهرة الراقية تتألف القوة المهيبة التي لا تحصل على القوة إلا حصلت على الاستقلال لأن هذين لازم وملزوم» [٢].

«ومن مجموع الأقطار القوية المهيبة يتكون حينئذ رأس هو الخلافة إذا استقلت به إحدى دول الإسلام كانت رأسها تطاطئ له الرؤوس» [٣].

هذا هو مذهب الأمير شكيب في النهضة الإسلامية ، ويقوم على تربية الفرد ثم البلد ثم القطر ثم العالم الإسلامي ، وهذا لا يتحقق إلا بالمجاهدة والتضحية واستذكار سير الشعوب التي جاهدت وضحت فنالت حريتها واستقلالها :

---

١ - رسالة مطولة أرسلها «شكيب أرسلان» من لوزان إلى «أكرم زعيتر» سنة ١٩٣١م نشرت في سلسلة مقالات بعنوان «ذكريات مع الأمير شكيب أرسلان» بقلم أكرم زعيتر بجريدة (الشرق الأوسط) ١٩٨٦/٣/٢٢م وما بعده.

٢/٣ - المصدر السابق .

«نحن أمة كسائر الأمم ، بشر كسائر البشر ، نتبع طرق الأمم التي كانت فقدت استقلالها ثم استقلت .. طريقهم أنهم بعد أن انقرضت حكوماتهم ودولهم عمدوا إلى الجمعيات ، جمعيات منها سرية ومنها علنية قانونية ، فهذه قامت لهم مقام دولهم ، قام الفكر مقام السلطة ، قامت السلطة الشعبية مقام السلطة الأجنبية الحاكمة ، ولم تزل تتقوى حتى تناولت السلطة القانونية باسم الوطن» [١].

يعتقد شكيب أن هذا النسيج التحتي من الخلايا هو عصب نهوض الأمة وبمقدار ما تشتد هذه الأعصاب وتتقوى وتزداد عددا وصلابة تقترب ساعة الخلاص .

يقول الأمير : «إن الجمعيات وهي ما يسميه الترك التشكيلات هي طريق الخلاص ، جمعيات خفية ، جمعيات قانونية ، لجان ، شركات ، نقابات ، كل هذه التشكيلات سواء كانت خيرية أو علمية أو اجتماعية أو تجارية أو صناعية أو زراعية قوى للوطن ومنابع حياة له ، وهذه الجمعيات لها صناديق ، وهذه الصناديق وجودها يعلم البذل أو ما يعبر عنه بالتضحية ، فإذا صارت في الوطن الواحد عدة جمعيات وشركات ولجان وكل واحدة منها لها صندوق ملآن صارت في الوطن عدة قوى أوعدة أجنحة تنهض به» [٢].

ويرى شكيب أن تعدد هذه التشكيلات في داخل الوطن الواحد تجعله أشبه بعضو ملآن دما في جسم الإسلام ، فإذا كان كل من الأعضاء ملآن حياة تألف منها جسم نشيط وثيق قوي سريع ناهض ، جميع ما فيه يؤدي ما عليه تماما فنال مراده في هذه الحياة .

«وهي الطريقة الإقليمية أي أن كل إقليم يبدأ بنفسه ويوطد مداميك حائطه ، فإذا رأى نفسه تقوى وارتأش وصار قادرا على النهوض التفت إلى جاره ومد يده إليه» .

ويؤكد الأمير شكيب أن القرآن العظيم هوأقوى رابطة تجمع قلوب المسلمين في كافة أقطار العالم الإسلامي : «وأما الجامعة بين هذه الأقطار فهي طبيعية حاضرة أقرب

١/٢ - المصدر السابق .

من حبل الوريد وما دام القرآن موجودا لا نخشى عليها » [١].

ويقول شكيب مؤيدا ثقته في اتجاهه السياسي : «فالتشكيلات هي قوة كل أمة فقدت حكومتها وكيانها السياسي ، وهي الزعيمة مع الثبات والعزم واتقان العمل وروح التضحية بإعادة ذلك الكيان السياسي» [٢].

ويرى شكيب أن هذا الطريق «الشعبي» هو أجدى نفعا وأكثر فائدة من الإجتماعات والمؤتمرات «الرسمية» العظيمة الصدى والقليلة النفع ، فيضيف شكيب :

«هذا هو مذهبي في النهضة الإسلامية ، ولذلك تأتيني كتب كثيرة من المغرب والجاوي ومصر وسوريا والعراق وفلسطين مقترحا أصحابها عقد مؤتمر إسلامي وما أشبه ذلك ويكون جوابي دائما : يجب أن نؤسس من تحت ، يجب أن نربي الفرد ثم البلد ثم القطر ثم العالم الإسلامي ، ويقولون إن تعليم الأفراد وترقية الأقطار هما مما يأخذ وقتا طويلا ونحن في حاجة إلى العجلة ، وأجاوب : إن (التعليم) بطبيعة الحال سائر مع (التشكيلات) التي ذكرناها ، إذ لا خير في التشكيلات إن لم يكن أول شيء تبدأ به هو التعليم والتهذيب» [٣].

هو ذا رأي شكيب في النهوض الإسلامي ، وفي سبيل تحقيق حرية العالم الإسلامي وتقدمه ورقيه ، ومن نصوص شكيب السابقة ، وفي غيرها من آثاره المطبوعة يبدو بوضوح حرص الأمير على حسن تربية الفرد المسلم وتعليمه ليكون عضوا نافعا لدينه وأمته ، إذ بدون ذلك لا نفع يرجى ، ولا فلاح لأمة .

والأساس الذي يراه الأمير لازماً في بناء الفرد المسلم هو (القرآن الكريم) ، «لأن الإسلام لم ينتشر إلا بالقرآن وعمارة الصدور به ، إلى أن بلغ قراؤه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التي مكنتهم من نواصي الأمم ، وهذه القوة المعنوية هي الأصل ، وهي التي بدونها لا تنهض أمة» [٤].

٣/٢/١ - المصدر السابق وفي رواية لمحمد شفيق شيا في كتاب (شكيب أرسلان : مقدمات الفكر السياسي ص١٨١) يضيف شكيب : «وأما أن نعقد مؤتمرا مجموعا من ضعفاء ليس لهم إرادة مستقلة وهم لا يقدرون أن ينفذوا قرارا فما فائدة ذلك ؟ أتريدنا أن نجمع أصفارا ! » .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي جـ١ ص٢٨ .

وما القوة المادية مهما دقت أوغلظت إلا تبع للقوة المعنوية ، وهي بالنسبة لها كالبدن بالنسبة إلى الروح ، وكل ما يقال من أن سبب الفتوحات الإسلامية الباهرة هو مراس العرب للقتال أو حبهم للغزو ، أو ملل الأمم المجاورة من حكامها ، كل هذا تضييع للمعنى الحقيقي ، وزيغ عن شاكلة الصواب .

«وإنما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل من عند الله خارق للعادة، وبقوة معنوية أحدثها في النفوس ، خارقة للعادة» [١].

وشكيب أرسلان يدرك أن الله هيأ للمسلمين بالقرآن الكريم كتاباً ما فرط فيه من شيء ، وأمرهم أن يتدبروه وأن يعملوا به ،وبهذا التدبر وهذا العمل حقق المسلمون في صدر الإسلام ما حققوه من فتح ومجد وقوة ، لذلك حذر طلاب النهضة القومية دون الدينية من أن يولوا الدين ظهورهم ، وبين أن دعوتهم ستفضي إلى الإلحاد والإباحية ولن تبعث نهضة أو تقدما كما يزعمون ، يقول شكيب :

«يقول بعض الناس مالنا وللرجوع إلى القرآن في ابتعاث همم المسلمين إلى التعليم فإن النهضة لا ينبغي أن تكون دينية بل وطنية قومية كما هي نهضة أهل أوروبا ، ونجيبهم أن المقصود هو النهضة .. ولكننا نخشى أن جردناها من دعوة القرآن أن تفضي بنا إلى الإلحاد والإباحة وعبادة الأبدان واتباع الشهوات ، مما ضررة يفوت نفعه ، فلابد لنا من تربية علمية سائرة جنبا إلى جنب مع تربية دينية ، وهل يظن الناس عندنا في الشرق أن نهضة من نهضات أوروبا جرت دون تربية دينية ؟» [٢].

ويوضح شكيب : فهم الأوربيين للفظتي (الوطن) و (القوم) فهما عندهم لفظتان تدلان على وطن وأمة بما فيهما من جغرافيا وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة مجموعا ذلك معا ، وهذا الذي يناضلون من أجله ويستبسلون كل هذا الاستبسال من أجله [٣] مما يدل على النقل المحرف لدى دعاة (القومية) و (الوطنية) من المسلمين .

---

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق جـ١ ص٢٨ .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، ص١٣٨-١٣٩ .

٣ - المرجع السابق ، ص١٣٩ .

ويقرر الأمير أن الأزمة الحقيقية الحاضرة في أمة الإسلام هي (أزمة التعليم) ، فطريقة التعليم التي جرت عليها الحكومات الإسلامية والمسلمون في عصره ستكون نتيجتها أشد وبلا على المسلمين من الاستعمار ومن الحروب الصليبية ، ومن الغارات الاقتصادية ، ومن كل مصيبة وداهية [١].

وهذه الطريقة هي أن ينشأ الفتى المسلم دون عقيدة من الصغر تنقش في لوح صدره ، وأن لا يكون له نصيب من حفظ القرآن الكريم ، ولا من قواعد العربية ، فكيف نطلب منه بعد ذلك أن يكون مسلما [٢].

كما ينبه الأمير إلى خطر التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ، ويرى أنها ستفضي حتما إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أو ينظروا إلى أنفسهم على أنهم هم ممثلوا الحضارة الالهية التي جاء بها الإسلام ، لذلك «يشدد حملته علي أولئك الذين يرسلون أولادهم إلى أوروبا للتعلم فيها ، دون تزود من الدين والعقيدة ، ويرى أن فوضى التعليم خطر عظيم ، وأن عدم تجانسه سيؤدي في العالم الاسلامي إلى فتن وشداند بين أبنائه أنفسهم أشد خطرا من غارات الأفرنج واحتلالاتهم التي لابد أن يتقلص ظلها بالصبر والثبات واغتنام الأوقات [٣].

ولكن الإحتجاج على تعليم المسلمين تعليماً غربياً لا يعني أبدا أن الإسلام يعارض (العلم) في ذاته ، فشكيب أرسلان لا يعتقد أن هناك علما أوروبيا وعلما شرقيا ، فالعلم مشاع بين البشر أجمعين [٤]، ولكن الأمير يؤمن أن النهضة العلمية للأمة لابد أن تكون في إطار لغتها ، وتاريخها ، وعقيدتها ، وشخصياتها ، ولذلك يقول : «التجاريب من قديم الدهر أثبتت أن التربية العلمية لا تنهض بالأمة نهوضا حقيقيا إلا إذا حصلت ضمن دائرة لغتها وتاريخها وعقيدتها ومشربها» [٥]، وشكيب ينصح المغاربة أن يقتبسوا العلوم الأوروبية مع المحافظة على معتقداتهم ومشخصاتهم ،

٢/١ - شكيب أرسلان ، الفتح ١٧ ابريل ١٩٣٠م .

٣ - شكيب أرسلان ، الفتح ١٧/٤/١٩٣٠م .

٤ - شكيب أرسلان ، الفتح ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٩هـ .

٥ - شكيب أرسلان ، الفتح عدد ٢٤ ربيع الأول ١٣٥١هـ .

ويضرب المثل باليابانيين الذين أخذوا عن الغرب ما نفعهم ، وحافظوا على شخصيتهم ودينهم ، ويضيف الأمير « .. والتفرنج في نظري شر الأشياء ، والأمم مهما كانت فمن شأنها أن تحافظ على كيانها ، فكيف بأمة عظيمة لها تاريخ مجيد ؟ » [١].

ويرى شكيب أن حث (القرآن) على (العلم) هو خير حافز للمسلمين على سبق الأمم في الرقي ، فما من دين أبدا حث على التقدم العلمي كما حث عليه الاسلام ، «فالعالم الإسلامي يمكنه النهوض والرقي واللحاق بالأمم العزيزة الغالبة إذا أراد ذلك المسلمون ووطنوا أنفسهم عليه ، ولا يزيدهم الإسلام إلا بصيرة فيه وعزما ، ولن يجدوا لأنفسهم حافزا على العلم والفن خيرا من القرآن الذي فيه » [٢]:

(هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) [٣].

ويستشهد الأمير شكيب بآيات قرآنية كثيرة تبين حرص الإسلام على العلم وإجلال العلماء ، ثم يرد على زعم أعداء الإسلام ومنهم (المسيو سيكار) أحد مستخدمي فرنسا في الرباط ، وكان قد ألف كتاباً في الطعن في الاسلام ، وكتب في مجلة «مراكش الكاثوليكية» : أن المراد بلفظة «العلم» في القرآن هو العلم الديني ولم يكن المقصود به العلم مطلقا لنستظهر به على قضية تعظيم القرآن للعلم وإيجابه للتعليم [٤].

ويرد الأمير شكيب هذا الإفتراء بالدعوة إلى تأمل آيات (القرآن الكريم) المتعلقة (بالعلم والحكمة) وغيرها مما يحث على السير في الأرض والنظر والتفكر ، فسنعلم «أن المراد هنا بالعلم هوالعلم على إطلاقه متناولا كل شيء ، وأن المراد بالحكمة هي الحكمة العليا المعروفة عند الناس ، وهي غير الآيات المنزلة والكتاب كما يدل عليه العطف وهو يقتضي المغايرة » [٥].

---

١ - شكيب أرسلان ، الفتح ١٧ جمادى الأولى ١٣٤٩هـ .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ص١٣٣ .

٣ - الزمر :٩ .

٤ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص١٣٦ .

٥ - المرجع السابق .

وشكيب يرى أن الحديث النبوي الشهير : «أطلبوا العلم ولو في الصين» [١] يعزز القول بأن المراد بالعلم هو العلم على إطلاقه «فلو كان المراد بالعلم هو العلم الديني كما زعم (سيكار) ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحث على طلبه ولو في الصين إذ أن أهل الصين وثنيون لايجعلهم النبي مرجعا للعلم الديني كما لا يخفى» [٢].

ويضيف شكيب أن في بعض آيات القرآن الكريم من القرائن اللفظية والمعنوية مايقتضي : «أن المراد بالعلم علم الكون لأنه في سياق آيات الخلق والتكوين وهي في القرآن أضعاف الآيات في العبادات العملية كالصلاة والصيام» [٣].

ويمثل الأمير لذلك بقول الله تعالى : «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به من ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء» سورة فاطر : ٢٧-٢٨ .

ويرى الأمير أن المراد بالعلماء في هذه الآية الكريمة «العلماء بما ذكر في الآية من النبات والجبال وسائر المواليد المختلفة الألوان وما فيها من أسرار الخلق لا العلماء بالصلاة والصيام والقيام» [٤].

وهكذا يتضح لدينا أن إهمال المسلمين ، وليس النقص في التعاليم الإسلامية ، هو الذي سبب الإنحلال الحاضر ، وأن الإسلام لم يقف يوماً ما سداً في وجه التقدم والعلم، وأن أوروبا «مع تبحرها في العلوم الطبيعة والمادية لا تزال تبني ثقافتها على أساس ديانة مضى عليها أكثر من تسعة عشر قرنا ، وعلى لغات وآداب مضى عليها أكثر من ثلاثين قرنا ، وهي مع ولوعها بالجديد ،لم تنس الإحتفاظ بذلك القديم» [٥].

---

١ - تتمته «فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم» رواه العقيلي وابن عدي والبيهقي وابن عبد البر عن أنس ، وله طرق يقوي بعضها بعضا . (رشيد رضا) (المرجع السابق) هامش

٢ - المرجع السابق .

٣ - المرجع السابق .

٤ - المرجع السابق ص١٣٧ .

٥ - شكيب أرسلان . الفتح ١٧ ابريل ١٩٣٠م .

من هذا ينتقل الأمير شكيب أرسلان إلى استخلاص العبرة التي يحرص عليها ويسعى نحوها :

«إذن المدنية تجتمع مع الدين ... ، إذن اللادينية ليست شرطا من شروط الحضارة الأوروبية ... ، إذن الحكومات الشرقية التي تزعم أنها إنما تقطع صلتها بالدين الإسلامي إقتداء بحكومات أوروبة التي بزعمها قطعت صلتها بالدين المسيحي إنما هي حكومات تضلل أفكار السذج من رعيتها ، وتموه عليهم ، وتقصد حربا وتوري بغيرها .. إذن هذه الحكومات كاذبة فيما تزعم ، وإذن ناشرو دعايتها في مصر والبلاد العربية كاذبون أيضا ، إذن على الأمة المصرية وعلى الأمة العربية جمعاء أن ينتبهوا للحقائق» [١].

وأخيراً يرى (شكيب أرسلان) أن العلم الأعلى الذي يجب أن يتعلمه المسلمون لينهضوا ويتقدموا ويترقوا كما ترقى غيرهم من الأمم - هو الجهاد بالمال والنفس الذي أمر به الله في قرآنه مرارا عديدة ، وهو ما يسمونه اليوم (بالتضحية) .

«إن (التضحية) أو الجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها ، فإذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف ، ودنت منها جميع القطوف والمجاني» [٢].

أما العلوم الطبيعية والرياضية في أشكالها الخالصة والتجريبية ، والتي يعتقد كثير من المسلمين أنها مفتاح الرقي والتقدم ، فيرى شكيب أنها «فروع لا أصول ، وأنها نتائج لا مقدمات» [٣].

وهذه نظرة دقيقة سبق بها الأمير عصره الذي كان من أبرز سماته إنبهار المسلمين بالتقدم العلمي الغربي ، واعتقاد أكثرهم أن سبيل النهضة منحصر في تقليد نظام التعليم الغربي ، ولكن إذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا

---

١ - شكيب أرسلان ، الفتح ٩ فبراير ١٩٢٨م .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص١٦٣ .

٣ - المرجع السابق .

يستطيعون أن ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم من غير وازع ما ، إن كل تأخرنا العلمي وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الإسلام الدينية الكامنة [١].

ويضيف شكيب : «فالمسلمون يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم وعملوا بما حرضهم عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الأوربيين والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء ، وأن يبقوا على إسلامهم كما بقى أولئك على أديانهم ، بل هم أولي بذلك وأحرى» [٢].

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) [٣]

---

١ - محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق ، ص٧٨ .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص١٦٤ .

٣ - سورة العنكبوت ، آية ٦٩ .

بعث (مدنية الإسلام) في مواجهة (الحضارة الغربية)

إن نجاح الحضارة الغربية في ميادين الإقتصاد والسياسة والعلم التطبيقي نجاحا عالميا جعل الحركة الاستعمارية في العالم تحاول أن تستثمره في فرض الوصاية على الشعوب المختلفة باسم (المثل الحضاري الأعلى) [١] ، وقد ساعد على ذلك ما وقع فيه بعض المفكرين من وهم فانطلقوا الى القول بوحدة الحضارة الإنسانية ، بما تتضمنه هذه الفكرة من افتراض نهر واحد لها ، وهو الغرب ، والزعم بأن جميع ما عداه ليس إلا روافد له ، أو هي مياه ضائعة في رمال الصحراء [٢].

وخيل لكثير من المسلمين ممن تأثروا بحملات المستشرقين والمبشرين الأوروبيين ، أن الحضارة الغربية - في أحدى صورها المتحققة أو المنشودة - هي المثل الأعلى للإجتماع الإنساني ، فنظروا إلى (المدنية الغربية) على أنها القوة الوحيدة لإحياء الحضارة الإسلامية الراكدة ، فأدخلوا بذلك الضعف على ثقتهم بأنفسهم ، ودعموا بطريق غير مباشر ذلك الزعم الغربي القائل بأن الإسلام «جهد ضائع» [٣].

لذلك أدرك (شكيب أرسلان) أن العالم الاسلامي يحتاج إلى مراجعة ذاته ، لمزيد من معرفة النفس ، والعثور على روحه التاريخية الخاصة في مثل هذا الصراع الثقافي والسياسي الذي يواجهه ، ومثل هذه المعرفة بتاريخ حضارتنا شرط جوهري لانطلاق هذه الحضارة فاعلة في التاريخ .

ولهذا عني شكيب بتبيان أن الإسلام لم يقف عند حد الفتوحات أو إقامة السلطان الواسع ، بل هو بدل في الوقائع والنفوس والتاريخ فأسهم في بناء (مدنية إسلامية) خاصة به حقيقية ، سامية ، راقية ، مبنية على كتابه وسنته .

---

١ - وهي فكرة تقوم في تحليل توينبي على ثلاثة جذور ، وهي الإغراق في حب الذات من قبل هؤلاء الدارسين الغربيين ، ووهم القول بفكرة الشرق الراكد ، ثم وهم الزعم بالتقدم كحركة تلتزم خطا مستقيما على الدوام «أرنولد توينبي ، مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد شبل ، جـ١ ص٥٩ ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ص٦٦ .

٢ - د. عفت الشرقاوي ، في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص٣١ ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١م .

٣ - محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق ، ص٦٧ .

«ولما كان أعداء الإسلام يريدون أن ينتقصوه بأي شكل من الأشكال ، فقد حاولوا إنكار أن يكون له مدنية خاصة به وزعموا أنه ما زاد على أن نقل ونسخ ، وما أشبه ذلك من الأقاويل» [١]، واستدلوا على ذلك بحالته الحاضرة وزعموا أن الشجرة تعرف من ثمارها ، متجاهلين بذلك اسهامات المدنية الاسلامية في دفع مسيرة العلم إلى الأمام ، وما قدمته إلى الإنسانية من انجازات .

وقد فند الأمير مزاعم أعداء الإسلام هؤلاء سواء كانوا من داخل العالم الإسلامي أو من خارجه وبين الهدف الذي يرمي إليه كل فريق منهما فقال :

«أما زعم من زعم أن الإسلام لم يتمكن من تأسيس مدنية خاصة والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة ، فهو خرافة يموه بها أعداء الإسلام من الخارج ، وبعض جاحديه من الداخل ، أما القسم الأول فلأجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الأوروبية ، وأما القسم الثاني فلأجل أن يزرعوا في العالم الاسلامي بذور الإلحاد » [٢].

وينكر الأمير شكيب أن يكون الدين الإسلامي هو المسؤول عن تخلف المسلمين الديني والدنيوي في القرون الأخيرة ، «فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة ، بل من الجهل بالشريعة ، أوكان من عدم إجراء أحكامها كما ينبغي ، ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الإسلام عظيماً عزيزا . وأي عظمة أعظم مما كان الإسلام في أيام عمر بن الخطاب مثلا» [٣].

ويخلص شكيب إلى تأكيد علو المدنية التي أقامها الإسلام ، حقيقة لاجدال فيها : «ومدنية الإسلام قضية لا تقبل المماحكة إذ ليس من أمة في أوروبا سواء الألمان أو الفرنسيس أو الانجليز أو الطليان ... الخ ، إلا وعندهم تآليف لا تحصى في (مدنية الإسلام) فلو لم تكن للإسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه ، مبنية على كتابه وسنته ، ما كان علماء أوروبا حتى الذين عرفوا منهم بالتحامل على الإسلام يكثرون من ذكر المدنية الإسلامية ، ومن سرد تواريخها ، ومن المقابلة بينها وبين

---

١ - شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ص١١٢ .

٢/٣ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص١١٩-١٢١ .

غيرها من المدنيات ، ومن تبيين الخصائص التي انفردت بها » [١].

«فالمدنية الإسلامية هي من المدنيات الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام ، والتي تغص سجلاتها الخالدة بمآثرها الباهرة» [٢].

ويمضي شكيب في ضرب الأمثال على (مدنية الإسلام) بذكر العواصم الإسلامية وحواضر بلاد الإسلام في آسيا وأفريقيا والأندلس في عصور الإسلام الزاهرة وما بها من آثار العمران ، وتطاول البنيان ، ورفاهة السكان ، وانتشار العلم والعرفان مما يؤكد علو قيمة تمدنها وعظيم انجازها .

ثم يعلق شكيب على ذلك بقوله : «هذه لمحة دالة على مآثر (حضارة الإسلام) وغرر أيامه . وإلا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبديع لم يتسع ذلك الجلود الكثيرة المرصوفة طبقا فوق طبق» [٣].

ويحسن بنا أن نتوقف قليلاً أمام المصطلح الذي استخدمه شكيب أرسلان أعني (مدنية الإسلام) أو (حضارة الإسلام) ، فشكيب يستخدم كلمتي (الحضارة) و (المدنية) بمعنى واحد ففي كتابه (لماذا تأخر المسلمون) الذي نقلنا عنه الفقرات السابقة يضع عنوان هذا المبحث (مدنية الإسلام) بينما ينقل عنه في حواشيه على (حاضر العالم الإسلامي) تحت عنوان (الحضارة الإسلامية ورقي العرب الفكري في العصور الوسطى) ويكرر في داخل المتن كلمة (الحضارة) و (المدنية) للدلالة على الشيء نفسه .

ولقد ارتبط استخدام كلمة (حضارة) في العربية بدلالة مكانية تحمل في بعض مجالاتها الحركة المقصودة والخير ، كما في قولنا حسن المحضر ، إذا كان ممن يذكر الغائب بخير ، ويقال رجل حضر ، إذا حضر بخير [٤].

«أما في العصر الحديث فقد أطلق عدد كبير من الباحثين كلمة الحضارة على كل

١/٢/٣ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص١١٩-١٢١ .

٤ - مادة (حضر) في (لسان العرب) .

ما يتصل بالتقدم والرقي الإنساني في المجالات المختلفة كاللغة والأدب والفنون الجميلة والصناعة والتجارة ، وغير ذلك من مظاهر النشاط الإنساني الذي يؤدي إلى التقدم والرقي ويبسر السبيل إلى حياة إنسانية كريمة » [١].

«أما فيما يتعلق بكلمة «مدنية» فيميل كثير من الباحثين إلى استخدامها مرادفة لكلمة «الحضارة» فإنها تشير في اللغة أيضا إلى ارتباط مكاني» [٢].

جاء في لسان العرب : مدن بالمكان أقام به .

«ومثلما يفعل الباحثون العرب في كثير من الأحيان فيستخدمون كلمتي (الحضارة والمدنية) مترادفتين ، يميل كثير من الباحثين الغربيين الى استخدام كلمتي : (Civilisation, Culture) بمعنى واحد ، ومن الباحثين الغربيين من يفرق بينهما فيرى أن : «الحضارة هي ما نحن ، وأما المدنية فهي ما نستعمل» ، وبعبارة أخرى فإن الحضارة في رأيهم في الفنون والآداب والديانات والأخلاقيات ، بينما تتمثل المدنية في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا » [٣].

أما الجزء الثاني من (المصطلح) أو التعريف ، وأعني بذلك كلمة (الإسلام) أو (الإسلامية) التي يصر (شكيب أرسلان) على وصف (المدنية) أو (الحضارة) بها فيميل كثير من الباحثين إلى تسمية هذه الحضارة (بالحضارة العربية) على أساس دور العرب واللغة العربية فيها [٤].

وشكيب أرسلان لا ينكر دور العرب السياسي والثقافي في تأسيس هذه الحضارة ، كما أن أحداً لا يماري فيما قدمته اللغة العربية بوصفها لسان الثقافة والعلم والمعرفة في العصور الوسطى لشعوب العالم ، ولكنه كان يرى : أن أسباب الإرتقاء كلها كانت

---

١ – د.عفت الشرقاوي ، في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص١٤ .

٢ – المرجع نفسه ص١٥ .

٣ – المرجع نفسه ص١٦ ، يقول ابن خلدون : «إن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ، ومؤذنة لفساده» ، وهكذا يستخدم ابن خلدون كلمة (الحضارة) للدلالة على صفة معينة من حياة المدنية .

٤ – كما فعل جوستاف لوبون الذي سمى كتابه (حضارة العرب) ، وكما فعلت بفريد هونكة التي سميت كتابها : (شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربية في أوروبا) .

عائدة بمجملها إلى الديانة الإسلامية [١].

«فالعرب لم يستقلوا استقلالا حقيقيا واسعا إلا بالإسلام ، ولم تعرفهم الأمم البعيدة وتخنع لهم الممالك العظام والقياصرة والأكاسرة وتتحدث بصولتهم الناس ، ولم يقعدوا من التاريخ المقعد الذي أحلهم في الصف الأول من الأمم الفاتحة إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم [٢].

أضف إلى ذلك أن سكان الجزيرة العرب الذين اعتنقوا الإسلام لم يكونوا هم وحدهم الذين أسهموا في بناء (الحضارة الإسلامية) ، بل أسهم فيها من غير العرب كثيرون من الفرس والأتراك والأسبان والأرمن والمغول وغيرهم ، «كشأن الحضارات البشرية بأجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ويكمل بعضها بعضاً» [٣]، ولكن يبقى أن وصف(شكيب أرسلان) لهذه الحضارة بالإسلامية هو الوصف الأرجح باعتبار أن الإسلام هو دين الغالبية في هذه الحضارة ، وأن الشريعة الإسلامية كانت الرابط الموحد لشعوب الدولة الإسلامية في ثلاث قارات هي آسيا وأفريقيا وأوروبا طوال العصور الوسطى ، وأن هذه الحضارة قد استمدت من الإسلام العناصر الفعالة في إقرار الإنسجام بين التقاليد الثقافية المختلفة ، ومن هذه العناصر شعيرة الحج ، وهو لقاء على مستوى عام بين المسلمين ، يقرب بينهم ويؤلف بين قلوبهم ، ثم اللغة العلمية المشتركة ، وهي اللغة العربية التي كانت لغة الثقافة والمعرفة في كل مكان من العالم الإسلامي .

وقد حاول بعض حساد الإسلام والمكابرون في عظمة فضله من مؤرخي الأفرنج أن يصغروا من شأن (مدنية الإسلام) ، وأن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً وسبقوا إلى نظريات صارت خاصة بهم ، فقالوا :

إن المسلمين لم يزيدوا على أن قلدوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب[٤].

---

١ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص٤١ .

٢ - المرجع نفسه ص٤٢ .

٣ - المرجع نفسه ص١٢٤ .

٤ - المرجع نفسه ص١٢٢ .

وقد تصدى (شكيب أرسلان) للرد على أصحاب هذه المزاعم مستشعرا خطرها فيما لو انتشرت بين شباب المسلمين ، فذكر أن موقفهم مع ما ينطوي عليه من التعصب غير العلمي والتحامل على الإسلام مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها وحقائق كشفوها وآراء سبقوا إليها ، فضلا عما زادوا عليه وأكملوه ، وما نشروه ونقلوه [١] ، كما بين أن كل المدنيات تشترك وتتمازج ولا يقدح ذلك في تميز كل منها .

وينطلق شكيب أرسلان في تصديه لأعداء (المدنية الإسلامية) من مقدمة أولى يراها يقينية وثابتة وفحواها : أن (مدنية الإسلام) لم تكن نسخاً ولا نقلاً ، وإنما هي قد نبعت من (القرآن) وتفجرت من (عقيدة التوحيد) [٢].

«إن الإسلام لم ينتشر إلا بالقرآن وعمارة الصدور به إلى أن بلغ قراؤه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التي مكنتهم من نواحي الأمم» [٣].

«فكل ما يقال أن سبب الفتوحات الإسلامية هو مراس العرب للقتال أو حب البدو للغزو وغرامهم بالغنائم أو ملل الأمم المجاورة من ملكة حكامها فهذا تضييع للمعنى الحقيقي وزيغ عن شاكلة الرمية ، وإنما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل هو خارق للعادة ، وبقوة معنوية أحدثها في النفوس خارقة للعادة ، ولقد كان العرب أهل حرب من قديم الزمان ، وكان الأعراب مغرمين بالنهب والكسب من أعلى أيام الجاهلية ، فلماذا لم يفتتحوا البلدان إلا بعد بعثة محمد[٤] ؟» [٥].

وهكذا نجد الأمير شكيب حاسما في تحديد سبب ارتقاء المسلمين ورده إلى الديانة الإسلامية ، وإلى الإيمان العميق بالعقيدة الداعية إلى الوحدة لا إلى الإنقسام والفرقة ، والثائرة على الجهل والجاهلية في سبيل المدنية ، والمناهضة للظلم والقسوة

---

١ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص١٢٢ .

٢ - المرجع نفسه ص١٢٣ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ٢ ص٢٨ .

٤ - صلى الله عليه وسلم .

٥ - المرجع السابق .

وصولا إلى الرحمة ، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان من أجل عبادة الواحد الأحد [١].

«وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحاً جديده ، صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة ، ومجد وعرفان وثروة ، وفتحوا نصف الكرة الأرضية في نصف قرن ... فالقرآن قد أنشأ إذا العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيريتهم والسيف في إحدى اليدين والكتاب في الأخرى يفتحون ويسودون ، ويتمكنون من الأرض بطولها وعرضها» [٢].

من هذا المنطلق يؤكد شكيب أرسلان أن (مدنية الإسلام) استمدت عناصرها من مبادئ الإسلام الأولى ، ولا يقدح في أصالتها أنها أخذت عن غيرها من المعارف والعلوم والنظم التي لا تتعارض مع مقاصدها وقواعدها الكلية ، ولم يتوقف جهد المسلمين على النقل أو التقليد بل هضموا كل هذا الزاد ، وصهروه في بوتقة عقيدتهم ومبادئهم ومثلهم ، «وكيفوا كل هذا التراث تكييفا فيه التنظيم والتقويم ، وفيه التعديل والتحليل ، وفيه الزيادة والريادة ، وفيه الأصالة والجلالة» [٣] يقول شكيب :

«أما ما ترجمته (حضارة الإسلام) من كتب ، وما أخذته عن غيرها من علوم ، وما أفادته في فتوحاتها من منازع جميلة ، وطرائق سديدة ، أخذتها عن غيرها فلا يقدح ذلك في بكارتها الإسلامية ، ومسحتها العربية ، لأن هذا شأن الحضارات البشرية بأجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ويكمل بعضها بعضا» [٤].

أما الإدعاء بأن الشرق وأن المدنية الشرقية كانت مزدهرة قبل ظهور الإسلام ، راتعة في بحابح العمران ، فجاء الإسلام وطمس المدنيات الشرقية القديمة ، فهذا إدعاء باطل - في رأي شكيب - فالغرب كان غلب على الشرق قبل الاسلام [٥]. والمدنيات الشرقية كانت كلها قد انقرضت أو انحطت قبل ظهور الإسلام بكثير [٦].

٢/١ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون (مرجع سابق) ص٤١ .

٣ - أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص٢٠٥ .

٤ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، (مرجع سابق) ص١٢٣-١٢٤ .

٥ - المرجع نفسه ص١٢٣ .

٦ - المرجع نفسه ص١٢٨ .

ولا يقدر مكابر أن ينكر دور الإسلام العظيم في الدنيا ، فالإسلام وحده لا غيره «هو الذي جدد مدنية الشرق الدارسة ، وبعث تلك الحواضر العظمى الزاخرة بالبشر كبغداد والبصرة وسمرقند وبخاري ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وهلم جرا ، فإن كانت قد بقيت للشرق آثار (مدنيات قديمة) فإن الإسلام هو الذي وطد بوانيها»[١].

«وأضفى عليها لباس الإسلام الخاص ، ودبجها بديباجة القرآن التي لم تفارقها في شرق ولا غرب» [٢]، والإسلام هو الذي «حمل السيف بيد والقلم بيد إلى أبعد ما تصوره العقل من حدود الأقطار التي لم يسبق لشرقي أن يطأها بقدمه» [٣].

ولم يتوقف دور الإسلام على الفتوحات المادية بل كان له دور عظيم في الفتوحات الروحية أو العقلية ، فأهم مايميز (المدنية الاسلامية) أنها تعمل على بناء شخصية حضارية متوازنة تساير في نفس الإنسان جانبها الغيبي والحسي ، وذلك لأنها تتخذ موقفا وسطا فتعرف للروح قدرها ومكانها وللمادة قيمتها ووزنها ، فتقضي حق الدنيا كما تعلى كلمة الدين «فلا هي تذهب مذهب الحضارة البوذية - على سبيل المثال - التي تنكر عالم الحس ، وتبالغ في انكاره ، وتبشر بأن حياة الإنسان محنة في واقع الأمر ينبغي احتمالها والصبر على مكارهها وأن الخير كل الخير في اجتناب خديعتها وشهواتها (*) ولا هي تذهب مذهب العبرية القديمة ذات النزعة العملية التي تربط بين المفهوم الروحي للخير والشر وبين ملابسات الواقع والمصير الاجتماعي ، وتقيم فلسفة الجزاء والثواب والعقاب على أساس جماعي مرتبط بمصير الجماعة في هذه الحياة الحاضرة» [٤] ولا هي تذهب مذهب المدنية الغربية المعاصرة ، وهي مدنية تقدس المادة، وتكاد تعبد الشهوة ، وتستخف بالقيم ، وتستهين بالمثل والمبادئ .

---

١ - المرجع نفسه ص١٢٨ .

٢ - المرجع نفسه ص١٢٣ .

٣ - المرجع نفسه ص١٢٨ .

* ومثلها النصرانية لأنها ديانة مبنية على الزهد والمبالغة فيه ، والخضوع لكل حكم دنيوي ، والعمران لا يتم ولا يسمو إلا بالسيادة والملك والغنى ، ومن قواعد الإنجيل أن الجمل إذا دخل في ثقب الإبرة فالغني لا يدخل ملكوت السموات .. (رشيد رضا) هامش لماذا تأخر المسلمون ، ص١٢٧ .

٤ - د. عفت الشرقاوي ، في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص٢٨-٢٩ .

ولهذا التوافق في (المدنية الإسلامية) بين النشاط الروحي والنشاط العملي في الحياة أصبحت رؤية الإنسان للوجود رؤية متفائلة مقبلة على الحياة ، مبدعة خلاقة «ترى في عمران الأرض ، واجبا دينياً مقدساً ، وهذا هو المزاج الفلسفي المتميز الذي طبع الحضارة الإسلامية في أقاليمها المختلفة بطابع واحد بحيث يجوز لنا أن نقول في النهاية : نعم لقد ظلت (حضارة) واحدة رغم كل ما تضمنته من تنوع إقليمي» [١].

ولهذه (المدنية) كان يدعو شكيب أرسلان ، ويجتهد في إبراز قدرتها على الجمع بين الدين والدنيا ، فعلى الرغم أن أساسها وأصلها يرجع إلى القرآن والتوحيد إلا أنها سبقت وأبدعت في علوم المعادن والنباتات والحيوان .

«وكانوا - العرب - يعتمدون في العلم على التجربة وهذا يخالف مذهب بعض الشعوبية المتنطعين الذين لا يفتأون يقولون إن العرب كانوا يعتمدون في علومهم على الأسلوب الغيبي ، وعلى التخيلات ، وما أشبه ذلك من الأقاويل الفارغة» [٢]، «وقد تلقى عنهم الغرب علوماً ومعارف كثيرة ، وعرف ما لم يكن يعرفه في ذلك الوقت [٣] ، إلى جانب التفوق الشرقي المستمر في العلوم الأدبية والعقلية ، يقول شكيب : «إن الغربي وإن بذ الشرقي في العلوم المادية فلم يبذه في العلوم الأدبية أو العقلية ، وإن المحققين من الغربيين معترفون بمزية الشرقيين في الفلسفة والمنطق ، مقرون في العلوم الأدبية أو العقلية ، وإن المحققين من الغربيين معترفون بمزية الشرقيين في الفلسفة والمنطق ، مقرون بأن الشرق هو منشأ الحكمة ومهد المدنية» [٤].

ولكن ليس معنى هذا أن تغلق الحكمة الشرقية والمبادئ الإسلامية بابها أبدا في وجه العلوم العصرية ، بل لها وعليها أن تأخذ من هذه العلوم ما يقويها ويعليها ، فمن أقدس قواعد الإسلام - كما يقول شكيب - هذا الحديث الشريف : «الحكمة ضالة

---

١ - المرجع السابق .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ص١١٧ .

٣ - المرجع السابق .

٤ - شكيب أرسلان ، مقدمة كتاب في النقد التحليلي ، ص(هـ) .

المؤمن ينشدها ولو في الصين» [١].

ويستطيع المسلمون اليوم أن يستفيدوا من العلوم الغربية فهم يستردون في حاضرهم بعض ما قدموه إلى البشرية في ماضيها «فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هي : أن العرب في القرون الوسطى كانوا أساتيذ الأوربيين ، وكان الواحد من هؤلاء إذا تخرج على العرب تباهى بذلك بين قومه» [٢].

ولا تستطيع أمة أن تزعم أنها انفردت بخلق العلم وإبداعه من البداية للنهاية ، «ولا يجب القول عن العلوم العصرية بأنها علوم غربية ، بل هي علوم لا شرقية ولا غربية، وهي علوم بشرية امتلأت حياضها من قطرات قرائح البشر منذ تأسست الحضارة، وصادف العصر الحالي تألق أنوار العرفان السابقة ازدهار مصابيح العلم في الشرق ، مما نبئنا بعظمته الأخبار والآثار» [٣].

وبناء على ذلك فلا حرج أن يدرس المسلمون اليوم العلوم وأن يدرسها من غير أن يخضعوا خضوعا (يسترقهم) للإتجاه العقلي في الغرب ، فما يحتاجه العالم الإسلامي ليس استشرافا فلسفيا جديدا ولكن تجهيز علمي فني عصري ، وبهذا يستعيد المسلمون الديون العقلية التي اقترضتها أوروبا من (المدنية الإسلامية) على يد مترجمي (طليطلة) [٤] في العصور الوسطى ، «والحقيقة أن هذه الملكة العلمية وأن هذا البحث والتنقيب قد أثبتها العرب لأنفسهم من البداية في بغداد حيث قرر علماؤها من ذلك الوقت تقريرا صريحا المبادئ التي ينبغي أن يسير عليها العلم وهي السير من المعلوم إلى المجهول وعدم قبول شيء على أنه حقيقة إلا بعد ثبوته بالتجربة ، إذن منذ القرن

---

١ - هذا مضمون حديثين أحدهما : «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها» رواه الترمذي من حديث أبي هريرة ، والثاني «اطلبوا العلم ولو بالصين» رواه العقيلي ص٤ وابن عدي والبيهقي وابن عبد البر عن أنس ، (رشيد رضا) هامش لماذا تأخر المسلمون

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟

٣ - شكيب أرسلان ، الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسيني ، ص١٢٥ .

٤ - ترجم شكيب أرسلان محاضرة ألقاها الجراح الفرنسي (فورغ) عن مجلة المستشفيات الفرنسية عدد ١٩ مارس ١٩٣٢م وقد جاء فيها : «كانت طليطلة قد عادت إلى الأسبان ١٠٨٥ فصارت مركز الاتصال بين المدنيتين الاسلامية والمسيحية .. ومركز للترجمة» (حاضر العالم الاسلامي - جـ١ ص١٢٨ وما بعدها) .

الحادي عشر أثبت العرب أنهم كانوا قد ملكوا الطريقة العلمية الصحيحة» [١].

وينقل (شكيب أرسلان) عن الفيلسوف الألماني «هومبولد» Homboldt قوله : «إن العرب لم يقتصروا على حراسة كنز المعارف الذي عثروا عليه بل أضافوا إليه وأوسعوه وفتحوا طرقاً جديدة للبحث في أسرار الطبيعة» [٢].

وهكذا كان (شكيب أرسلان) يحتفي بما ينشره الباحثون الغربيون المنصفون فيترجمه ، وينقل عنهم في مقالاته وحواشيه وكتبه معتبراً ما حرره هؤلاء في حق (المدنية الإسلامية) شهادة تقدم لناشئة المسلمين المفتونين بكل ما ينقل عن الغرب وردا على أعداء (المدنية الإسلامية) المكابرين في الشرق والغرب [٣].

كما كان لا يهدأ ولا يسكت إذا رأى من ينتقد هذه المدنية أو يفتري عليها ، مثل رده الشديد على (المسيوسان) (المقيم الأفرنسي السامي) في المغرب الذي نشر في (مجلة الأحياء) الافرنسية مقالة يتكلم فيها عن يقظة المغرب بعد (ليل الإسلام) ! هكذا تعبيره .

فأثارت كلمته شكيب فكتب يقول : «فإن كان تأخر إحدى الممالك الإسلامية حقبة من الدهر يجب أن يقال فيه (ليل الإسلام) فكم كان ليل النصرانية طويلا عندما بقيت أوروبا المسيحية زهاء ألف سنة وهي في حالة الهمجية أو ما يقرب من الهمجية» [٤].

ويقصد شكيب أن الأمم الأوروبية تنصرت «في القرن الثالث والرابع والخامس والسادس من ميلاد المسيح ، وبقيت أمم في شرقي أوروبا إلى القرن العاشر حتى

---

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ١ ص١٣٥ .

٢ - المرجع السابق .

٣ - مثل نقله عن المستشرق الالماني المحقق (ماكس ماير هوف) بعض ماكتبه في كتابه (العالم الإسلامي) في حواشيه على (حاضر العالم الاسلامي) وترجمة خلاصة رأي الفيلسوف الانجليزي (ولز) في حضارة العرب عن كتاب (تجربة في التاريخ العام) ، وترجمة كتاب العلامة (درابر) الأمريكي (في تاريخ الحركة الفكرية العلمية في العالم) ومثل اهتمامه بقول نابليون بونابرت : (إن العرب فتحوا الدنيا في نصف قرن لاغير) لشدة دهشته من تاريخ الاسلام ، ونشره - شكيب - في رسالته : لماذا تأخر المسلمون ؟ ص١٢٤ .

٤ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ ص١٣٢ .

تنصرت ولم تنهض أوروبا نهضتها الحالية التي مكنتها تدريجيا من هذه السيادة العظمى بقوة العلم والفن إلا من نحو أربعمائة سنة أي من بعد أن دانت بالإنجيل بألف سنة» .

وشكيب يرى أن (النصرانية) نفسها لم تكن هي المسؤولة عن تخلف أوروبا مدة ألف سنة في القرون الوسطى ، بل كان للمسيحية (الفضل في تهذيب برابرة أوروبا) ، وكذلك البوذية والوثنية لم يكونا سببا تخلف (اليابان) السابق ولا نهضتها الحالية ، وإنما للتأخر والتقدم أسبابا وعوامل متراكمة ترجع إلى أصول شتى من فساد الأخلاق ، وانحطاط الهمم وانتشار الخنى والخلاعة ، وشيوع الإلحاد والإباحة ، من هرم الدول الذي يتكلم عنه ابن خلدون وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية منضمة إليها أسباب خارجية مثل غارات أعداء وغيرها ، فإذا تراكمت هذه العوامل في خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد ، وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بإزاء شرها ، كما أصبحت معايب أسخفها غير مؤثرة في جانب خيرها [١].

ومن أكبر أمثلة التاريخ الشاهدة على صدق هذا سقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحي فيهم ، وسقوط اليونان من قبلهم بعد أن تقبلوا دعوة بولس إلى النصرانية ، فهل يقدر أحد أن يقول : إن الوثنية أصلح للعمران من النصرانية ؟ [٢].

فإذا كان الدين لا يصح أن يجعل معياراً لتأخر أو تقدم هذه الأمم فإن هذا لا ينطبق على الإسلام ، فالقرآن والتاريخ يثبتان أن (الإسلام) هو سبب تقدم أهله حين أهتدوا به وسبب تأخرهم حين أعرضوا عنه ، فأظلم الظلم أن يجعل سبب تأخيرهم ، يقول الأمير شكيب :

«فإذا كان الأفرنج الصليبيون من الغرب ، وكان المغول أولئك الجراد المنتشر من الشرق ، قد دمروا ما بني الإسلام في تلك الممالك ، ونسفوا عمران هاتيك الحواضر ، وكانت منافسات ملوك الإسلام الداخلية للشهوات وامعانهم في الضلالات ، ومحيدهم

---

١ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ (مرجع سابق) من ص١٢٣-١٣٢ .

٢ - المرجع السابق ص١٢٧ .

عن جادة القرآن القويمة ، وفقدهم ما يزرعه في الصدور من الأخلاق العظيمة ، وقد قضت في الداخل ، على ما عجز عن تعفيته العدو من الخارج ، فليس الذي في هذا التقلص ذنب الإسلام ، ولا التبعة في هذا الإنقلاب عائدة على القرآن ، وإنما الذنب هو ذنب الهمج من الأفرنج ، وجناية ذلك الجراد الزاحف من الغول ، وإنما هي تبعة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بآياته ثمنا قليلا ، إلا النادر منهم »[١].

وهكذا ينتهي الأمير شكيب أرسلان إلى الطريق الذي ينبغي أن يسلكه المسلمون لتنمو (المدنية الإسلامية) نموا جديدا عظيما ، مملوءا بالثقة بالنفس ، فما من مدينة تستطيع أن تزدهر أو أن تظل على قيد الحياة بعد أن تخسر إعجابها بنفسها ، وصلتها بماضيها ، فإذا أراد المسلمون أن يبحثوا عن الباعث الروحي والعقلي فلن يجدوه إلا في العودة لإسلامهم ، فالإسلام هو الذي بعث الأمة العربية في التاريخ وهو قادر على أن يبعثها من جديد ، أما الخطر الحقيقي الذي يمكن أن يهدم الإسلام ويقطع صلة المسلمين بماضيهم ويفقدهم مركزهم الروحي والثقافي والسياسي فهو اتخاذ المسلمين ثقافة أجنبية تختلف عنه اختلافا جوهريا في أسسها الأخلاقية .

« أما الإسلام فلا جدال في كونه هو سبب نهضة العرب وفتوحاتهم المدهشة مما أجمع على الإعتراف به المؤرخون شرقا وغربا ولكنه لم يكن سبب انحطاطهم فيما بعد كما يزعم المفترون الذين لا غرض لهم سوى نشر الثقافة الأوروبية بين المسلمين دون ثقافة الإسلام وبسط سيادة أوروبة على بلدانهم بل كان السبب في تردي المسلمين هو أنهم اكتفوا في آخر الأمر من الإسلام بمجرد الإسم والحال أن الإسلام اسم وفعل » [٢].

---

١ - المرجع نفسه ص١٢٨ .

٢ - المرجع السابق ص١٣٢ .

الخاتمة

لعل النتيجة التي يخرج بها الباحث في آراء الأمير شكيب أنه أمام مفكر إسلامي عظيم ، وقف حياته للدفاع عن كل ما يمت إلى العرب والمسلمين بصلة ، إننا أمام حياة مقدرة لعمل مسمى ، يوشك كل جزء من أجزائها وكل عنصر من عناصرها أن يشير إلى ذلك العمل ويترقب الوجهة التي اتجه إليها ، فقد عاش شكيب نصف عمره منفياً وعاش عمره كله مجاهداً مناضلاً في سبيل ما اعتقده صحيحاً وحقاً مشروعاً .

فنشأته منذ صباه على تربية عالية ، وحياته في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، عصر النهضة القومية والمطامع الدولية ، والصراع في ميادين العلم والسياسة والدين ، بين الغرب المستعد بأهبته والشرق الذي تتنازعه التيارات المختلفة والآراء المتباينة .

وأسرته التي مكنته من الإتصال بكبار العاملين في حقل الأدب واللغة والسياسة ، وما أتيح له من الإجتماع بالزعماء المصلحين وإكبارهم لإتجاهاته الإسلامية في الإصلاح والسعي لخدمة الإسلام .

كل ذلك جعل حياة شكيب أرسلان أشبه ما تكون بحياة المناضلين الأوائل أصحاب العقيدة والقلم ، وتمت حياة الرجل ولم تتم رسالته في خدمة قومه وعقيدته .

وحسب المصلح صاحب الدعوة عرفانا بعظمته وإنصافاً لمقصده أن يسبق الزمن وأن يحسن السبق إلى مجراه ، وأن يأتي بالغد المجهول من ظلمات الغيب فيمشي فيه على هدى قبل أن تهتدي إليه شمس النهار ، وهذا ما يميز فكر الأمير شكيب أرسلان ويشهد بتفوقه واستحقاقه للإستمرارية والبقاء ليس بمقياس عصره فقط ، بل بمقياس الزمن الذي نعيشه اليوم ، فهو من دعاة النهضة والتقدم وليس من أنصار الجمود والجحود ، وطبيعي أن عوامل النهضة والرقي لم تتوقف بوفاته .

ولنا أن نثبت هنا أن صاحب هذا الفهم العميق للإسلام كعقيدة وشريعة ، وهو الذي شغل نفسه بهموم المسلمين ودافع عن قضاياهم ووحدتهم طوال حياته ، لا يمكن أن

يكون منتميا بفكره إلى طائفة تتخذ من الجهل شرعة ومنهاجاً ، ومن الإنحراف عن الإسلام وجوهره الصافي ، والبعد عن المسلمين ديناً .

وأخيراً .. نرجوا أن نكون قد وفقنا في إثبات أن الأمير شكيب أرسلان الذي ناضل بعقله وقلمه طوال أربعين عاماً في سائر العالم الإسلامي ، تجاوز مسألة الإستعمار والاستقلال إلى طرح آراء كلامية وفلسفية تمثل منهجاً إصلاحياً شاملاً في مجالات الدين والسياسة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ؛؛

المراجع

-القرآن الكريم .

- ابن تيمية - أحمد

١- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، الرياض - ١٣٨١هـ

٢- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، القاهرة ١٩٥١ م

- ابن خلدون

٣- تاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨١ م

- ابن كثير

٤- تفسير القران العظيم ، دار الشعب ، القاهرة

٥- البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٧٧م

- أبو الحسن الماوردي

٦- الأحكام السلطانية ، طبعة ١٣٢٧هـ ، ١٩٠٩م ،

- أبو الحسن الندوي

٧- ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ، دار القلم ، الطبعة التاسعة ، ١٩٧٣م ، الكويت

٨- الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، دار القلم ، ١٩٨٣م

- إحسان إلهي ظهير

٩- الشيعة والتشيع فرق وتاريخ ، باكستان ، ١٩٨٤م

- أحمد بن حنبل

١٠- الرد على الجهمية والزنادقة ، تحقيق عبد الرحمن عميرة ، دار اللواء ، الرياض ، ١٩٨٢م

١١-مسند الإمام أحمد بن حنبل ، بيروت ١٩٦٥م

-أحمد سمايلوفتش

١٢- فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ،(رسالة دكتوراه ٩ / ٩ ١٩٧٤ م بالأزهر) . دار المعارف بمصر

-أحمد الشرباصي (الشيخ)

١٣- أدب أمير البيان ، سلسلة مذاهب وشخصيات ، القاهرة

١٤- أمير البيان شكيب أرسلان ، مطابع الكتاب العربي ، مصر ١٩٦٣م، الطبعة الأولى

١٥- شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، المؤسسة المصرية العامة ، ١٩٦٣ م

- أرنولد توينبي

١٦- مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد شبل ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦٦م

- البرت حوراني

١٧- الفكر العربي في عصر النهضة (ترجمة عزقول) الطبعة الثالثة ، دار النهار بيروت ١٩٧٧م

أنور الجندي

١٨- محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل ، المجلد الخامس ، دار الأنصار بمصر .

- البخاري

١٩- صحيح البخاري ط ١٢١٥ هـ - ١٨٩٧م.

- البلاذري

٢٠- فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، القاهرة

- جمال الدين الأفغاني

٢٠- الرد على الدهريين ، السلام العالمية للطبع والنشر ، مصر ، ١٩٨٣ م

٢١- العروة الوثقى ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان طب ٣ ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م

٢٢- خاطرات جمال الدين الأفغاني ، دار الحقيقة بيروت ١٩٨٠ م

-جميل صليبا
٢٣- المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧١م
- د. حسن الشافعي
٢٤- لمحات من الفكر الكلامي ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ١٩٩٣م
- د. سامي الدهان
٢٥- محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٨ م
٢٦- الأمير شكيب أرسلان حياته وآثاره ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٦ م
- سامي مكارم
٢٧- أضواء على مسلك التوحيد (الدرزية) دار صادر ، بيروت ١٩٦٦م
-شكيب أرسلان
٢٨-لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت
٢٩- روض الشقيق في الجزل الرقيق ، وهو ديوان أخيه الأمير نسيب حققه وقدم له الأمير شكيب ، دمشق ١٩٣٥م
٣٠- تاريخ ابن خلدون ، تأليف عبد الرحمن بن خلدون ، تعليق شكيب أرسلان ، المطبعة الرحمانية بمصر ، ١٩٣٦ م
٣١- حاضر العالم الإسلامي - تأليف ستودارد الأمريكي ، وترجمة عجاج نويهض ،وتعليقات الأمير شكيب ، في أربعة أجزاء ، دار الفكر بيروت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٣م (الطبعة الرابعة)
٣٢- تاريخ غزوات العرب في فرنسا و سويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، دار الكتب العلمية بيروت
٣٣- النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي - تأليف محمد أحمد الغمراوي، القاهرة ١٣٤٧هـ-١٩٢٩م(مقدمه سكيب في ٥٦ صفحة)
٣٤- الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف - تأليف الأمير شكيب أرسلان ، مطبعة المنار بمصر ، ١٣٥٠ - ١٩٣١م
٣٥- السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة - تأليف شكيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون بدمشق ، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م
٣٦- شوقي أو صداقة أربعين سنة - مطبعة عيسى الحلبي بمصر ١٩٣٣م
٣٧- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية - تأليف الأمير شكيب أرسلان ، المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٩م.
- الشهرستاني
٣٨- الملل والنحل(المطبوع على هامش الفصل في الملل) دار المعرفة بيروت
- صالح بن عبد الله العبود
٣٩- فكرة القومية العربية في ضوء الإسلام - دار طيبة بالرياض ، ١٤٠١هـ
-الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)
٤٠- تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دار المعارف ١٩٦٢ م
٤١- جامع البيان في تفسير القرآن
-عباس محمود العقاد
٤٢- الإنسان في القرآن ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٩م
٤٣- التفكير فريضة إسلامية ، دار نهضة مصر ، القاهرة
٤٤- عبد الرحمن الكواكبي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٦م
٤٥- أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣م
٤٦-عبقرية الإمام علي (سلسلة العبقريات)
- عبد الله الأمين
٤٧- دراسات في الفرق والمذاهب القديمة المعاصرة ، دار الحقيقة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م
- عبد الله النجار
٤٨- مذهب الدروز والتوحيد ، دار المعارف بمصر ١٩٦٥م
- عبد القادر شيبة الحمد
٤٩- الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

- د. عبد المنعم النمر
٥٠-الشيعة .. المهدي .. الدروز ، تاريخ ووثائق، كتاب الحرية ، القاهرة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م
-عبد الوهاب خلاف
٥١- خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي ، دار القلم ، الكويت
- عز الدين الأمين
٥٢- نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، القاهرة
- د. عفت الشرقاوي
٥٣- في فلسفة الحضارة الإسلامية - دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١م
- الغزالي (أبو حامد)
٥٤- فضائح الباطنية ، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي ، ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م
٥٥- المنقذ من الضلال ، ط ١٣٧٥، ١٩٥٥م
٥٦-الإقتصاد في الإعتقاد ، ط ١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م
- د . فهمي جدعان
٥٧- أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العصر الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت لبنان ١٩٨١م
- فيليب حتى
٥٨- لبنان في التاريخ ، ترجمة د . أنيس فريحة ، دار الثقافة - بيروت ، ١٩٥٩ م
- فيس الفرطاس
٥٩-نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها . مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٣٩١ه - ١٩٧١م
-كريم ثابت
٦٠- الدروز والثورة السورية وسيرة سلطان باشا الأطرش
- لوتسكي
٦١- تاريخ الأقطار العربية الحديث » ، (ترجمة بستاني) مؤسسة نوفل ، بيروت ١٩٧٩م
-محمد أحمد الخطيب
٦٢- عقيدة الدروز عرض ونقد ، مكتبة الأقصى ، الأردن ، طب١ ، ١٩٨٠م
٦٣- الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، مكتبة الأقصى ، طب ٢ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
-محمد أحمد الغمراوي
٦٤- النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي ، القاهرة ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م
- محمد أسد
٦٥- الإسلام على مفترق الطرق ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨م
- د . محمد البهي
٦٦- العصر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي ، مكتبة وهبة ، طب ٩ ، ١٩٨١م
- محمد الخير عبد القادر
٦٧- حجة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية ، مكتبة وهبة طب ١، ١٩٨٥م
- د. محمد السيد الجليند
٦٨- قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي ، مطبعة الحلبي ، طب ٢، ١٩٨١م
٦٩- أصول أهل السنة والجماعة ، للإمام أبي الحسن الأشعري ، تحقيق د. محمد السيد الجليند. ١٩٨٧م
-محمد العزاوي
٧٠- عرفة النرابة . تعاليمها وجالها على ضوء المراجع الفارسية، الهيئة العامة للكتب /جامعة عين شمس ، القاهرة
-محمد رشيد رضا
٧١- تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، مطبعة المنار بمصر ، ١٣٤٢م
٧٢- الخلافة او الإمامة العظمى ، مطبعة المنار ، ١٣٤١هـ - ١٩٢٢م
٧٣- فتاوى الإمام محمد رشيد رضا ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧٠م

- د. محمد شفيق شبا
٧٤- شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي ، سلسلة غير دورية تصدر عن مجلة الفكر العربي، ط الأولى ، ١٩٨٣م
- د. محمد ضياء الدين الريس
٧٥- النظريات السياسية الإسلامية ،ط ١٣٧١هـ - ١٩٥٠م
- محمد عبد الله عنان
٧٦- الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، دار النشر الحديث / القاهرة ١٩٣٧م
- محمد عبده
٧٧-الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، دار المنار بمصر ، القاهرة ١٣٦٧هـ
- محمد علي الطاهر
٧٨-ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، مطبعة عيسى الحلبي بمصر ، ط ١ ، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م
- د. محمد فتحي عثمان
٧٩- من أصول الفكر السياسي الإسلامي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٩م
- محمد قطب
٨٠- شبهات حول الإسلام ، الإتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م
- د. محمد محمد حسين
٨١- الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
٨٢- الإسلام والحضارة الغربية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعةالخامسة ، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م
٨٣- أزمة العصر ، دار عكاظ للطباعة والنشر ، جدة ، ١٩٧٩م
- د. محمد حمدي زقزوق
٨٤- الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، كتاب الأمة ، ط ١ ، ١٤٠٤ هـ
- د. محمود قاسم
٨٥- جمال الدين الأفغاني ، حياته وفلسفته، مكتبة الأنجلو المصرية
٨٦- المنطق الحديث ومناهج البحث ، دار المعارف بمصر ، ط ٥ ، ١٩٦٨م
- محمود المرداوي
٨٧- الخلافة بين التنظير والتطبيق ، دراسات في الفقه السياسي ، ط ١، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م
- د. مصطفى حلمي
٨٨- نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ، دار الأنصار ، ١٩٧٧م
٨٩-منهج علماء الحديث والسنة من أصول الدين ، دار الدعوة ، ١٩٨٣م
٩٠- الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ، دار الدعوة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م
٩١- الإسلام والأديان دراسة ومقارنة ، الطبعة الأولى، ١٩٩٠
٩٢- الإسلام والمذاهب الفلسفية ، دار الدعوة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م
٩٣- محاضرات في علم الكلام ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م
- مصطفى صادق الرافعي
٩٤- تحت راية القرآن ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
- مصطفى صبري
٩٥- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م(أربعة مجلدات)
- د. مصطفى السباعي
٩٦- الإستشراق والمستشرقون ، ما لهم وما عليهم ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م
- د. مصطفى الشكعة
٩٧- إسلام بلا مذاهب ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

-موريس بوكاي

٩٨- القرآن والتوراة والإنجيل والعلم (الترجمة العربية) ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨٧م

- د. ناصيف نصار

٩٩- تصورات الأمة المعاصرة ، برنامج كاتب وكتاب ، الطبعة الأولى ، الكويت ، ١٩٨٦م

- نجيب العقيقي

١٠٠- المستشرقون ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨١م

.....

الدوريات

أ- الشباب :

مجله اسبوعيه كانت تصدر بالقاهرة ، اصدرها محمد علي الطاهر بين سنة ١٩٣٧- ١٩٣٩م

٢- الشورى:

جريدة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، لصاحبها محمد علي الطاهر ، بين سنة ١٩٢٤-١٩٣١ م

٣- الفتح :

مجلة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة لصاحبها محب الدين الخطيب

٤- الفكر العربي :

مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية ، تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

٥- مجلة المجمع العلمي العربي :

مجلة شهرية ، يصدرها المجمع العلمي العربي بدمشق.

٦- الهلال:

مجلة شهرية تصدر بالقاهرة ، لمؤسسها جورجي زيدان ، بدأت في الصدور سنة ١٣١٠هـ - ١٨٩٢م

.....